
روايات مصرية للجيب
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020
40
ما وراء الطبيعة
وراء الباب المغلق
عدد خاص

مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقـدمـة

مرحبًا بكم..

جميعكم يعرف تلك العادة السخيفة التي يصعب أن أتخلى عنها، ألا وهي تقديم حلقة رعب كلما فرغنا من عشرة كتيبات، وهي عادة لا أجد لها تفسيرًا، وككل العادات الضارة غير ذات التفسير يستحيل أنّ أتخلى عنها..

هذه هي حلقة الرعب الرابعة.. وهي كالعادة مجموعة من القصص القصيرة، والقصيرة جدًا تتحدّث جميعًا عن موضوعي المفضّل: الرعب..

في هذه المرّة نناقش جانبًا من الرعب، لا يختلف عليه اثنان أو - كما يقول أجدادنا - لا تتناطح عليه شاتان، وهو الرعب الذي يكمن خلف باب مغلق...

ما الذي ينتظرنا خلف الباب المغلق؟ ما الذي سيحدث لو مددنا أيدينا المرتجفة إلى المفتاح، ثم إلى المقبض، وسمحنا لفضولنا الإنساني أن يرتوي؟ هل نعود أحياء؟ هل نعود سالمين؟ هل تبقى بحلوقنا قوة تسمح لنا بسرد أي هول رأيناه؟ كثيرون تساءلوا.. وكثيرون لم تبق لهم حلوق قادرة على الكلام بعدها!!

ها أنتم أولاء حولي.. وها هي ذي النار وجلستنا المعتادة حولها، وبعض أقداح الشيكولاتة الساخنة طبعًا، والشوق في

العيون اللامعة، أدعو الله ألا يتحول إلى خيبة أمل بعد انتهاء القصة..

واربوا هذا الباب، ولكن تأكدوا من أنّه لن..

ينغلق!!

آي!!

لا عليكم! إنها أمسية طويلة ولربما وجدنا المفتاح بشكل ما في نهايتها، أو لربما سمع استغاثتنا أحدهم بالخارج.. لا تحملوا هم الخروج، ولنصغ الآن إلى العجوز (رفعت إسماعيل) وهو يحكي لكم حلقة الرعب الرابعة..

❋ ❋ ❋

وراء الباب المغلق

كنا سبعة.. تباينت وجوههم وثيابهم وأهواؤهم، لكننا اجتمعنا في تلك اللحظات التي لا تنسى..

كنا سبعة.. أربعة رجال وثلاث نساء، وحاول الرجال أن يتصرفوا كما يليق برجال مهذبين، لكنّ ظروف الرعب التي مررنا بها جعلتنا نفقد ميراث الحضارة في لحظات، وصارت قواعد اللياقة ترفًا لا يتحمله الموقف..

كنا سبعة.. وهو رقم تفاءلت به الثقافات على أنواعها، لكننا تمنينا للحظة لو ينخفض هذا الرقم قليلًا.. ولهذا أسبابه..

كنا سبعة.. لكنّ الاطمئنان لم يكن ثامننا..

* * *

بدأت القصة في خريف عام 1971..
والفصول في مصر قد تتشابه، وقد تختلط، لكنّ شيئًا واحدًا يميزها هو الرائحة.. رائحة الأسفلت المبتل في الشتاء.. رائحة حبوب اللقاح وزهور البرتقال القادمة من أرض محروثة: هذا هو الربيع.. رائحة العرق ورائحة أنسام الليل الرحيمة في الصيف.. لكن الخريف له روائح عديدة.. سيحدثك التلميذ عن رائحة ورق تغليف الكتب، ورائحة الممحاة في الحقيبة الجلدية الجديدة.. وسيحدثك

الموظف عن رائحة (الجوافة) التي لا تفارق الثلاجة.. وستحدثك المراهقة دامعة العينين عن رائحة الحزن ذاتها.. وسأحدثك أنا عن رائحة المساء المبكر..

الخريف! يا لعذوبته.. يا لقسوته!

بدأت القصة في خريف عام 1971..

اتصل بي صديق قديم هو الدكتور (جابر إبراهيم)، يدعوني إلى قضاء سهرة الخميس في داره بـ (المقطم).. قلت له إنني سأمرض يوم الخميس، وإن صحتي لم تعد تحتمل السهر، لكنّ، انفجر ضحكًا:

- «يا (رفعت)! يا لك من مخبول! أنت تعرف أن سهرة في داري لا تعني سوى بعض المناقشات المثقفة الذكية، وربما

بعض قطع (الجاتوه) مع الشاي.. لا شيء مما تخاف القدوم لأجله..»
كدت أصارحه أنّ هذا بالذات هو ما أخاف القدوم لأجله.. سيكون هناك كثير من الأوغاد الثرثارين الذين يتكلمون ويضحكون بصوت عالٍ، وكل منهم يحاول أن يبرهن للآخرين أنه بخير وهم ليسوا بخير...
في النهاية قبلت كي أخرسه، وإن كنت أعترف أن أسماء بعض الموجودين بدت لي مغرية بالتأكيد...
نظرت لنفسي في المراة، وقلت:
- «ألن تكف عن الذعر يا (رفعت)؟ متى تصير حيوانًا اجتماعيًا، وقد كاد العقد الخامس من عمرك ينتهي؟»

لكن الإجابة كانت جاهزة لدي:

- «لن أصير حيوانًا اجتماعيًا أبدًا.. فمن رابع المستحيلات أن تلقن كلبًا عجوزًا حيلة جديدة كما يقول الإنجليز..»

ولكن من هو (جابر إبراهيم)؟

*   *   *

لا أعرف الكثير عن هذا الرجل.. أعترف بهذا..

إنه أستاذ جامعي... يقوم بتدريس الجراحة لطلبة الطب، ولديه عيادة هي نافورة مال في واحد من أرقى أحياء القاهرة - وان أذكر الحيّ طبعًا حتى لا أمنحه دعاية مجانية - وهو متأنق جدًا،

ولسبب ما صار من نجوم الإعلام الحقيقيين الذين يندر أن تخلو صحيفة من صورة لهم، ولا بد من أن تراه مرة أو مرّتين أسبوعيًا في التليفزيون..

نشأت بيننا صداقة ما، من طراز سطحي لا يخلو من المجاملة.. إنني رجل كثير المعارف، قليل الأصدقاء كما تعرفون...

ولم أتخيّل قط أن علاقتنا يمكن أن تكون أعمق من هزّ الرأس من على بعد كلما التقينا، وإخبار مرضى تضخم الطحال ـ الذين ينوي استئصال طحالهم ـ أن الجراحة لن تفيدهم بشيء..

فكيف أمضى أمسية عند هذا الرجل؟

لكن الإغراء كان قويًا كما قلت.. فالرجل يملك فيللا في (المقطم) يُقال إنها، أروع

منظر يمكن أن تراه في حياتك، وقائمة المدعوين لا بأس بها، تتضمن أسماء مثل (محمود عوني) الكاتب الصحفي الشهير، و(هيام) الممثلة الشابة بارعة الحسن، ومطرب شاب نسيت اسمه يغني مثل (عبد الحليم حافظ) دون توفيق كبير.. لماذا أذهب إذن؟ لأن العمر يمضي، وأنا لم أر كل شيء بعد.. ما زالت هناك أشياء أخرى غير الزومبيين والمذءوبين تحتاج إلى أن أراها قبل أن أغمض عيني في رضا، وأموت..

* * *

وفي الثامنة من مساء الخميس، دخلت سيارتي العتيقة في حياء وتهيب ذلك الممر المحاط بالأزهار عند مدخل الفيللا.. كانت السيارات الواقعة تشي بالثراء - حسب مقاييس هذه السنة - وشعرت بالفعل بأن عجلات سيارتي ترتجف في خجل.. لحسن الحظ كنت أرتدي البذلة الكحلية التي تجعلني فاتنًا، وقد سكبت على نفسي نصف زجاجة من (الكولونيا) التي أهدتها لي ابنة أختي في عيد ميلادي العاشر..

فتح لي الباب خادم نوبي يرتدي طربوشا وحزامًا عريضًا من نفس اللون فوق جلبابه الأبيض، وبأدب اقتادني إلى قاعة فسيحة تتناثر فيها الأرائك في فوضى منظمة.. ثمّة موسيقا راقية قادمة من مكان ما أو

إضاءة عادية ساطعة كإضاءة حفلات العُرس لا يميزها شيء..
عدد من القوم يجلسون أو يقفون، غارقين في محادثات فاتتني بداياتها بالطبع.. وسمعت من تقول لي في تهذيب:
- «مرحبًا يا د. (رفعت).. أنا (ناهد)..»
استدرت مرتبكًا لأجد سيدة في منتصف العمر، تضع على رأسها جمة صفراء عالية لامعة كأنها من الخزف - وهي المودة في هذا الزمن - وفيما عدا هذا لم تبد لي مجنونة أو بلهاء..
- «أنا حرم الدكتور (جابر).. كيف عرفتك؟ وهل يخفى القمر يا دكتور؟.. أنت اليوم أشهر من نار على علم، ولا يمكن

إقامة حفل يضم نجوم المجتمع دون أن تدعى إليه!»

بحثت عن منديلي لأمسح قطرات العرق على صلعتي، وقلت:

ـ «هذا شرف لي.. وأين هو؟»

ضحكت في مرح ضحكة خنفاء أرستقراطية:

ـ «بعلي؟ ليس هنا.. ثمّة جراحة عاجلة جعلتهم يستدعونه.. إنّه لا يكف عن هذه اللعبة السخيفة: هجري وحدي دون صديق ولا معين.. لكنه سيعود بالتأكيد.. لا بد أن يعود، فلا دار له إلا هنا..»

وببساطة جذبتني من كم سترتي تقتادني إلى حيث اجتمع عدد من ضيوفها.. وبأناقة

كالتي تراها في السينما قاطعتهم وأجرت عملية التعارف:
- «صبرًا يا شباب.. معي ضيف خارق للعادة هنا هو د. (رفعت إسماعيل).. قاهر الأشباح!»
بدا الغباء على الوجوه، فأدركت أن سمعتي لم تصل إلى هنا.. فحاولت أن تساعدهم على التذكر:
- «(بعد منتصف الليل)! البرنامج الرهيب الذي منعته الرقابة! لقد كان د. (رفعت) هو ضيفه الدائم..»
أخيرًا تذكر واحد أو اثنان شيئًا كهذا، لكني لاحظت في ضيق طريقتها في تقديمي، وهي طريقة لم تخل من السخرية.. سخرية خبيثة جدًا يصعب

الإمساك بها.. وأدركت أن مظهري صدم هؤلاء القوم.. وأنهم يكتمون في أذهانهم بعض الخواطر الساخرة عن ذوق هذا الدكتور (جابر)..

صعد الدم إلى رأسي، وقررت أن أكون سيفًا باترًا عند أول بادرة تدلّ على التحرش.. من أنتم يا حمقى؟ وماذا تعرفون عن أي شيء كي تعطوا أنفسكم الحق في انتقادي؟!

قالت مدام (ناهد)، وهي تشير إلى مكان خال على الأريكة:

- «هلمّ أجلس يا دكتور (رفعت).. دعني أقدم لك هؤلاء السادة..»

إن هذه الحسناء لا تحتاج إلى تعريف.. لقد رأيت صورتها مرارًا، ولم أنس

اسمها.. الممثلة الشابة (هيام) التي لو كان تمثيلها في مستوى جمالها.. لكانت لدينا (سارة برنار) أخرى...

والسبب الذي جعلني لم أنسها ليس مراهقة متأخرة، لكنّها تشبه (ماجي) كثيرًا، خصوصًا عندما تنظر للسقف وتضم شفتيها كأنما تتذكر.. هذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أتذكرها جيدًا...

لقد قامت (هيام) بأداء ثلاثة أو أربعة أدوار في أفلام ملونة، لكنّ حال السينما المصرية قبل حرب أكتوبر كان مضطربًا، وكان مصابًا بانعدام وزن وتخلف عقلي واضح، مما جعل من العسير على السينما أن ترى في هذه الممثلة سوى جمالها.. وحقًا كانت (هيام) بارعة الجمال...

أما الشاب ذو النظرات الحزينة والسالفين الطويلين والشامة، والذي يتكلم همسًا وهو يسبل عينيه، فهو المطرب الشاب (سمير الصياد).. وهو قد أوغل في تقليد (عبد الحليم حافظ) حتى أنه يوشك على الإصابة بالبلهارسيا وتليف الكبد مثله.. له أغنيتان علقتا بأسماع الناس، لكني لا أذكر منهما سوى مقطع واحد يقول:

«أنا لو أنساكى حافتكر مين؟ من بعد هواكي حياتي أنين»

وذلك بسبب الكسر الواضح للوزن باستعمال (حافتكر) في الشطرة الأولى، ومن العجيب أن أحدًا لم يلحظ هذا أو يهتم له، وكلما أبديت تأففك من هذا، ضحك محدثك في استخفاف وقال: «إنّه غناء على

كل حال.. ليس الأمر بهذه الخطورة!».. فتحمر أذناك خجلًا..
أما عن صوت الفتى فكان لا بأس به، ما خلا حشرجة معينة في حنجرته تغريك باستعمال أقرب عصا كي تحاول تسليك حنجرته بها..
ثالث الجالسين هو (محمود عوني).. الكاتب الصحفى الشهير، الذي يرأس تحرير ثلاث صحف واسعة الانتشار.. وهو متأنق يدخن الغليون، ويبتسم في وقار، وقد حرص على أن يطيل سالفيه الأشعثين الشائبين ليعطياه منظرًا غريبًا كقرود (البابون)..
كان كاتبًا لا بأس به، وقد أحببت كتاباته حقًّا، وأعتقد أنه إنسان ذكي.. الغبي بين

الكتاب يفتضح أمره سريعًا..
رابعة الجالسين هي الشاعرة (نادية فهيم).. وهي شاعرة في الأربعين تدخن بإفراط.. وتكره الرجال، باعتبارهم اللصوص الذين ظلوا يسلبون المرأة حقوقها منذ فجر التاريخ حتى اليوم..
هذا نمط معروف، ولا داعي للكلام عنه أكثر..
كان هناك كذلك مخرج سينمائي عجوز هو الأستاذ (حسين أبو النجا).. وهو من جيل الرواد كما يقولون، ولم يكف يومًا عن الإخراج - السينمائي طبعًا - لذات الحبكة.. بنت الحارة الشهمة الشجاعة التي يقع ابن الأكابر في هواها، ثم تحاول خطيبة ابن الأكابر منع النهاية السعيدة لهذه

القصة.. لقد قدم الرجل مائة فيلم، كلها على مستوى واحد من السوء.. لكن المعجزة التي جعلته يستمر دون أن يموت، جعلته بحق جديرًا بأن يكون من رواد فن السينما، وصار اسمه (المخرج الكبير)..

هؤلاء هم أهم الوجوه، وقد تناثر آخرون من حولنا، لكني لم أميز منهم واحدًا بعينه، وتساقطت الأسماء سريعًا..

بدأت الجلسة متحفظة، ثم دعا أحدهم المطرب إلى الغناء، وتعالت الأصوات ترجوه على غرار (غن يا وحيد)، فراح يتنننح في تواضع ويشير لحنجرته بما معناه إنّه لم يستعد..

في النهاية برز عود من مكان ما، وبدأ الرجل يعزف، وانطلق صوته المشروخ

يغني.. و.. وبدأ البعض يصفقون مع اللحن..

أعترف هنا أنني بدأت أصفق بدوري، ووجدتني أقهقه في سرور... هذا غريب! في البداية كنت متشككًا مشمئزًا من هذا الجو بأسره مع لمسة تعال لا بأس بها، وفجأة اندمجت وهزمت.. في نفسي تحرك ذات الطفل الموجود لدى الجميع، والذي يسره ويشعره بالفخر أن يجلس مع المشاهير.. حتى دعاباتهم التي ـ في مكان آخر ـ كنت سأجدها سمجة مبتذلة، بدت لي هنا جيدة لمّاحة لا تخلو من الذكاء..

راح الفتى يلوح برأسه يمينًا ويسارًا، وهو يردد دون كلل:

«أنا لو أنساكى حافتكر مين؟ من بعد هواكي حياتي أنين»

وخطر لي أن مؤلف كلماته أحمق دون شك.. يكفيه استبدال (راح أعرف مين؟) بـ (حافتكر مين؟) لتستقيم الأمور، ولما سمح لواحد مثلي بأن ينتقد ملكاته التأليفية..

دارت المرطبات - فقط لحسن الحظ - ومعها الجاتوه، وحلوى ما في أطباق تشبه ذيول حيوان (الأرماديللو)..

❋ ❋ ❋

جلست جوار الأستاذ (محمود عوني) نناقش مستقبل البلاد.. متى تنتهي حالة

اللاسلم واللا حرب، وهل لا بد من معركة فاصلة أم لا...

كان ذكيًا بالفعل، وقد قدمت لي آراؤه الكثير من الأفكار الجديدة، إنّه رجل يعرف أكثر بكثير مما يقول.. واحد من (الباصقين فكريًا) لو سمحتم لي بهذا التعبير.. ولاحظت أنه لا يعلن عن آرائه إلا همسًا، وهو يتلفت من وراء كتفيه.. هذا بالطبع يتناسب مع خطورتها..

لا أدري متى ولا كيف جرى بنا الوقت بهذه السرعة؛ لكنني نظرت إلى ساعتي لأجدها الواحدة بعد منتصف الليل..

كان عدد لا بأس به من الحاضرين قد انصرف بالفعل، والغريب أن الدكتور (جابر) لم يظهر بعد.. حفل في داره يوشك

على الانتهاء، وبرغم هذا لم نره لحظة واحدة..

ونقلت خواطري للمدام (ناهد) التي كانت واقفة على الباب تثرثر مع رجل أصلع وزوجته التي تدثرت بالفراء على كتفيها..

قالت (ناهد):

- «هذا هو شأن الأطباء.. ألست طبيبًا يا د. (رفعت)؟»

شعرت بالخجل من نفسي لأنني أملك الوقت الكافي الذي أمضيه في حفل كهذا، دون أن أنهمك بجمع المال.. يا لها من فضيحة!

كدت أنهض لأنصرف مودعًا محدثي اللبق، وباقي الضيوف، لكنّ مضيفتنا

النصف حسناء رفعت إصبعها السبابة إلى جانب رأسها في حركة أنيقة، وقالت:
- «لا.. لا! انصراف قبل عودة زوجي؟ مستحيل!»
صارحتها بأنني بدأت أميل للاعتقاد بأن زوجها قد توفي للأسف.. وأنني لن أنتظر هاهنا إلى ساعة الحشر بانتظار عودته..
نظرت لي في خبث، ثم نظرت للموجودين، وراحت تعدهم بإصبعها في شرود:
- «واحد.. اثنان.. خمسة.. ستة.. أنا السابعة.. لا بأس!»
ثم بانتصار هتفت:
- «لقد حان الوقت!»

تبادلنا النظرات، وكف المتحدثون عن الكلام، وتساءل سائل:

- «حان الوقت لماذا؟»

- «حان الوقت كي لا ينصرف أحد!»

سألتها في غباء:

- «سبعة لن ينصرف أحدهم؟ ما هذه اللعبة؟!»

اتجهت إلى مركز القاعة، وصفقت بيديها طالبة الصمت، ثم صاحت:

- «يا سادة أنا آسفة على الإزعاج.. لكنّ الحقيقة هي أننا جميعًا محبوسون هنا، وحتّى يعود زوجي.. لقد رحل الخدم وأغلق آخرهم الباب بالمفتاح.. النوافذ في الطابق الأول كلها مدعمة بالحديد.. الهاتف

لا يعمل الآن لأن أحدهم عطله من الخارج!!»
هب الكل واقفين، وتعالت الكلمات الغاضبة كما لا بد أن تتخيل..
وصاح المخرج العجوز في عصبية:
ـ «ما معنى هذا؟ هل هذا مخطط إجرامي؟ أية لعبة هذه؟»
وصاحت الممثلة الحسناء بالهستيريا الواجبة:
ـ «ربّاه! ماذا تعني هذه المرأة؟!»
تراجعت مدام (ناهد) للوراء خطوتين لتهدئ حماس القوم، وقالت:
- «هذه هي تعليمات زوجي، وأنا هنا سجينة مثلكم.. لماذا؟ لو أنكم جلستم والتزمتم الصمت لاستطعت أن أشرح!»

تبادلنا النظرات، ثم عدنا لمجالسنا متوقعين الأسوأ.

في رزانة سألها الكاتب الصحفي:

- «مدام (ناهد).. واضح أننا في موقف بلا تفسير.. أو أنك تملكينِ تفسيره الوحيد.. وإننا لنكون مسرورين حقًّا لو قدمت لنا ما يزيل حيرتنا..»

ابتسمت، وجلست واضعة ساقًا على ساق، وقد اعتمدت بمرفقيها على ركبتها، وقالت في هدوء:

- «الأمر يتعلق بلعبة من نوع خاص..»

❋ ❋ ❋

ـ «مرحبًا يا أصدقاء..»

- «أنتم جميعًا تعرفون هذا الصوت دون شك.. إنه صوتي.. لكنّ قليلين منكم يمكنهم ملاحظة الحشرجة التي بدأت تتسرب إلى نبراته.. ربما لم تلحظها سوى (ناهد)، وقلت لها كلامًا كثيرًا عن برد المساء والتهابات الحلق، وأحسبها صدقت ما قلت..»

كان الصوت ينبعث في تؤدة من جهاز التسجيل الذي وضعته مدام (ناهد) على المنضدة الزجاجيّة أمامنا.. ومع دوران الشريط كانت عيناها تتسعان بأهدابها الصناعية الكثيفة.. أدركت دون جهد أنها لا تفتعل شيئًا.. إنها تسمع هذا الشريط للمرة الأولى حقًّا...

كانت قد أحضرت لنا الجهاز، ومعه شريط تسجيل من الطراز العتيق ذي البكرات، وقالت لنا: إن هذه هي الرسالة التي تركها زوجها للموجودين هنا، وأمرها ألا تبدأ التشغيل إلا حين ينخفض عدد المدعوين إلى سبعة بمن فيهم هي ذاتها..

بالطبع وعدته بذلك.. وبالطبع - وإن لم تقل هذا - استمعت إلى الشريط خلسة كي لا تفاجأ بشيء.. الأمر الذي يؤكد لي أن زوجها قد قام باستبدال الشريط قبل أن ينصرف، وبعد ما تأكد من أنها لن تجد وقتًا لسماع هذا الشريط الجديد.. النتيجة هي أنها حائرة مندهشة، تسمع هذه العبارات للمرة الأولى وإن لم تعترف لنا



كان الصوت ينبعث فى تؤدة من جهاز التسجيل الذى
وضعته مدام «ناهد» على المنضدة الزجاجية أمامنا ..

بسبب حيرتها..

ويستمر الصوت من جهاز التسجيل:

- «لو كان الدكتور (رفعت إسماعيل) ما زال موجودًا، فلربما استطاع أن يفهم معنى ما أقول.. إن سرطان الحنجرة يصيب الجراحين كما يصيب سواهم، وسيكون مملًا أن أقول: يا ليتني امتنعت عن التدخين حين كان هذا بوسعي.. لكنّ الأوان قد فات، والبكاء على اللبن المسكوب يزيد الأمور سوءًا..»

هنا شهقت الزوجة، وغطت فاها المصبوغ بأناملها محاولة كتمان صرخة.. واضح تمامًا أنها لا تعرف عن الموضوع شيئًا..

الصوت يستمر:

- «سافرت إلى الخارج، ولم أخبر أحدًا بأنني أعتزم استشارة أساتذة جراحة الحنجرة في الولايات المتحدة، وقد قالوا لي ما كنت أعرفه.. لقد صار العلاج متأخرًا جدًا، ولم يعد من أمل لي إلا في العلاج التحفظي الذي يجعل لحظات الموت أكثر بطئًا..»

ساد صمت طويل بعدها..

كان السؤال الذي يتردد في أذهان الجميع هو: ما علاقة هذا كله بسجننا؟ لو أراد أن يموت فهذا شأنه، لكنّ ما دخلنا بهذا كله؟

عاد الرجل يتكلم بصوته الرصين، الذي بدات أميّز فيه الحشرجة الآن.. (فقط بعد ما قال ذلك، لأنني لست ممن يدعون الحكمة بأثر رجعي):

- «الليلة لن أكون في (مصر).. عندما تسمعون هذا الشريط سأكون في طريقي بالطائرة إلى (الولايات المتحدة) لأؤدي لنفسي آخر حقوقي نحوها، وهو تحصيل حاصل كما تعلمون، لكني مضطر لعمله..

«أسمعكم تتساءلون عن السبب الذي جعلني ألعب هذه اللعبة الغريبة.. أدعوكم إلى حفل ثم أتغيب عنه، وفي الغالب - لو سارت الأمور كما خططت لها - ستجدون أنكم سجناء في داري لسبب لا تفهمونه.. ويمكنني أن أخبركم بما هو أكثر..

«لقد عاد الخدم لديارهم سعداء بهذه العطلة.. أغلق واحد منهم الباب الرئيسي كي لا تتمكنوا من الرحيل، ولم ينس أن يفك بعض الأسلاك في صندوق توزيع

الهاتف بالشارع لينتهي احتمال أن تستدعوا أحدًا[1]..

«كل هذا معروف لزوجتي، وبحماقتها المعتادة قبلت أن تشارك فيه لأنني أردت أن أضعكم في اختبار ذكاء لكيفية الخروج من هنا.. لكنّها لم تعتقد ولم تشك لحظة في أن الانتقام هو غرضي الوحيد من كل هذا..

«إنني أكرهكم يا سادة! أكرهكم وأكره وجوهكم الكالحة التي تحتشد في داري طمعًا في التسلية، ولو لم يكن وجودكم في حياتي مهمًا للرونق الاجتماعي - مثلكم مثل كلاب (الداشهاوند)، والخيول الأصيلة - لطردتكم شر طردة، أو أبدتكم بأقرب علبة مبيد للصراصير أجدها في يدي!

«لا داعي للضيق! أنا لا أعني بكلامي واحدًا بعينه منكم.. فلا يعلم سوى الله (سبحانه وتعالى) من هم السبعة الذين تبقوا منكم في هذا الحفل.. وإنني لأتساءل..

«ترى هل بقي (عادل زكي)؟ تبًا له من منافق لص.. أنا أعرف جيدًا كم يكرهني وكم يلسن عليّ خلسة.. لكنّ الأقنعة التي علمنا المجتمع ارتداءها محكمة جيدًا، متقنة للغاية.. الآن وقد جاءت لحظة الحقيقة يسرني أن أعاقبه بطريقتي..

«ترى هل (سلوى عامر) هنا؟ كنت طيلة حياتي أمقت هذه المتصنعة المبتذلة التي تتظاهر بحبها للأدب.. إنها أغبى من القملة وأكثر خسة منها..

«هل المخرج الأحمق ضيق الأفق (أبو النجا) هنا؟ أنا أعرف جيدًا دناءته، وتلاعبه بالوجوه الجيدة، وأعرف أكثر من سواي أنه يكرهني..

«هل؟ هل؟ لن أعرف أبدًا..

«لكني متأكد من شيء واحد.. زوجتي هنا.. مهما كانت شخصيات الستة.. فلا بد أن (ناهد) هي السابعة..

«(ناهد) هي نموذج جيد للزوجة التي تصنع زوجها.. تصنعه عن طريق تعذيبه وإرغامه على أن يغرق همومه في العمل ومزيد من العمل.. إنها صنعتني بالطريقة التي تصنع بها الكلاب المسعورة بطلًا في العدو! وطيلة حياتي لم تكف عن إشعاري بالفشل، وبأنني منحتها أقل بكثير مما

تستحق.. ما إن بدأ الثراء يدق بابي حتى قررت أن ترقي نفسها إلى طبقة جديدة، وسرعان ما تحول (أبويا) إلى (بابي)، و(أمي) إلى (مامي) بمعجزة ما..

«لقد انتحلت شخصيّة سيدة مجتمع، وقررت فجأة أنني غير جدير بها؛ لأن مثيلاتها يمشين على الذهب ويرفلن في الحرير في ظروف أخرى مع رجال آخرين.. وأصارحها أن مثيلاتها يضربن بالسياط يوميًا لو كان أزواجهنّ أكثر حزمًا مني!

«شخص واحد هاهنا لا أحمل له ضغينة معينة، وأرجو أن يسامحني لو كان لم ينصرف بعد.. د. (رفعت إسماعيل): هل أنت هنا يا دكتور؟

«أنا لا أكرهك بالتأكيد.. ربما كنت لا أطيقك، لكنّ هذا موضوع آخر.. أنت كائن فضائي عجيب، وما زلت أندهش كلما رأيت قامتك الناحلة، وكيانك المريض، والملل يطل من عينيك وراء عويناتك السميكة...

«حقًّا هذا لا يبرر الانتقام منك.. لكني كنت بحاجة إليك كما يحتاج أي حساء إلى ملح.. إلى توابل..

«أنت تعرف الكثير عن عالم الرعب والأسرار المستغلقة - أو هكذا يقولون - وإن لدى هاهنا كثيرًا من الرعب الذي يحتاج إلى وجودك..

«سامحني يا زميلي على ما قد تسببه لك هذه الأمسية من متاعب، واشكرني على ما

قد تضيفه إلى خبراتك الرهيبة..

* * *

«إن قواعد اللعبة هي البساطة ذاتها، وقد استمددتها من كل أساطير الباب المغلق في تراث الإنسانية..

«أنتم هاهنا سجناء.. لا.. لا تحاولوا الهبوط من الطابق الثاني لأنني أغلقت الباب الرئيسي الذي يقود إليه، وأبواب الفيللا غير قابلة للتحطيم.. ربما الشيء الوحيد الذي سيتحطم هو عظامكم لو حاولتم اغتصاب باب منها..

«على أنني تركت ثلاثة أبواب موصدة في الطابق الأرضي.. ثمّة باب واحد يقود

إلى الخلاص، وبابان يقودان إلى الهلاك التام لكم، ولن أقول كيف طبعًا..

«الباب الأول: هو الباب الذي يقود إلى غرفة مكتبي.. الباب الثاني: هو الذي يقود إلى غرفة المعيشة الصغيرة.. الباب الثالث: هو الذي يقود إلى غرفة السينما.. إن (ناهد) لم يكن عندها وقت لدخول هذه الغرف قبل الحفل..

«تشاوروا بعناية، واختاروا.. ثم افتحوا الباب الذي اخترتموه ولا تندموا على قراركم هذا.. سيكون الهول شديدًا لو كان قرارًا خاطئًا، ولسوف تظفرون بميتة تكتب عنها الصحف شهورًا بعد هذا..

«إن هذا الموقف هو ببساطة تمثيل دقيق لحياتنا كلها.. ثمّة باب قد يقودك إلى المجد

والخلود، وباب قد يقودك إلى الهلاك الأبدي.. المشكلة هي أن تحسن الاختيار.. المشكلة هي ألا تختار الباب الخطأ أبدًا.. لا أدري كيف.. هذه هي أزمتنا جميعًا.. أنا قد اخترت بابي، وظفرت بسرطان في الحنجرة، وحقد لا ينتهي على الأدعياء مثلكم.. ترى ماذا تختارون أنتم؟!

«إن فرصتكم واهية لكنّها ليست معدومة.. سبعة عقول لا بد أن تصل للإجابة الصحيحة، حتى لو كانت عقولًا كعقولكم..

«وهنا يسأل سائل: لماذا رقم سبعة بالذات؟

«سؤال جيد وأنا أحب الأسئلة الجيدة..

«لقد كان رقم (سبعة) شديد الأهمّيّة في حياتي، وتركزت كل أحداثها المهمة حول رقم (سبعة) هذا، ومن الغريب أن أحدًا لم يندهش لكوني ولدت في اليوم السابع من الشهر السابع من عام 1917.. ربما في الساعة السابعة مساء كذلك...

«إن رقم (سبعة) شديد الأهمّيّة في الأديان، وشديد الأهمّيّة في قصص الشعوب.. وقد ظل رقم (777) يمثل الكمال المطلَق في وجدان البشريّة منذ زمن سحيق..

«لهذا قررت أن أمارس لعبتي على آخر سبعة حمقى يبقون في داري بعد ما يرحل الجميع..

«أعرف أنكم ستشيعونني باللعنات، وسوف ينهال سبابكم على رأسي، لكني أخرج لكم لساني بلا حرج، وأقول: إنني لا أعبأ بما تقولون؛ لأنني سأكون في قبري قريبًا، لا أهتم بشيء سوى ما أنا فيه..

«وداعًا يا سادة، وأتمنى لكم اختيارات موفقة!»

* * *

ظل الشريط يدور بلا صوت سوى صوت البكرة الرتيب، وفي النهاية تحرر الجزء الأخير الشفاف ليلحق بما سبقه..

كنت أنا أول من تكلّم:

- «صديد! هذا الرجل قد ضغط على (دمل) في روحه ليلوث كلماته بكل هذا الصديد..»

وقال الأستاذ (محمود عوني) وهو يشعل غليونه:

- «زوجك يا سيدتي مجنون تمامًا، ومن الغريب أن أحدًا لم يلحظ هذا، برغم أن (جنون العظماء لا يمرّ دون تعليق)، كما قال (شكسبير)..»

كانت في أسوأ حال ممكن، ولم تكن على استعداد لسماع العبارات المكررة السخيفة على غرار (إنّه مجنون يا سيدتي) و(يا للهول!) وما إلى ذلك..

الآن كان كل واحد منا يحتج بطريقته.. الممثلة تحتج بكثير من الهستيريا، مع

بعض العبارات التي صارت تفلت منها، ولا تدلّ على أصل شديد الرقي للأسف.. المطرب يمد يديه في حيرة وعدم فهم تمثيليين كأنما هو يوشك على غناء أغنية عاطفيّة، ولسان حاله يقول: أنا لا أستحق هذا.. أمّا الصحفي الكبير فقطب جبينه بما معناه: لنكن عقلانيين بعض الشيء...

الشاعرة الغاضبة ازدادت كثافة وسرعة تدخينها، وراحت لفافة التبغ تهتز بين أناملها منذرة بزلزال عصبي، وراحت تقول عبارات من نوع (هذا لا يليق بنا).. (دعابة سخيفة من إنسان ظنناه على قدر ما من النضج)...

سألتهم وقد قررت أن أجلس:

- «من منكم أخبر الآخرين أنه هنا؟»

تبادلوا النظرات.. أخيرًا قال المطرب وهو يتحسس شامة جبينه:
- «إن طبيعة حياتنا الاجتماعية تجعل من المستحيل التنبؤ بميعاد معين نعود فيه لديارنا..»
هذه هي المشكلة إذن.. كل هؤلاء أشخاص من الممكن جدًّا أن يبيتوا خارج ديارهم، ولن يندهش أحد لغيابهم...
سألت الكاتب الصحفي الذي أعرف أنه يعيش حياة اجتماعية مستقرة قوامها الالتزام:
- «هل تعرف المدام أنك هنا؟»
نفث المزيد من دخان الغليون، وقال:
- «للأسف لا.. إنها مع الأولاد في (العجمي) هذه الليلة بالذات.. ولا تعرف

أنني هنا..»

- «في (العجمي) في (أكتوبر)؟!»

- «إنها تعشق إسكندرية في الشتاء!»

هنا سألني المخرج العجوز بنفاد صبر:

- «وأنت يا د. (رفعت)؟ ما هي ظروفك؟»

ابتسمت في حزن:

- «أنا؟ إنني آخر إنسان يمكن أن يسأل عنه أحد أو يتساءل عن سبب غيابه.. إن موتي سيضايق جيراني لأسباب تتعلق بالرائحة لا أكثر!»

وطبعًا لم يكن من داع لسؤال السيدة (ناهد).. فالوحيد الذي يمكن أن يقلق عليها هو زوجها... زوجها الذي هو في طريقه الآن ليموت بـ (الولايات المتحدة)..

الحقيقة هي أننا في مأزق لا بأس به.. لكنّ هل هو مأزق حقًّا؟

* * *

نهضت (هيام) في هستيريا وعصبية متجهة نحو أحد الأبواب في طرف القاعة، وهي تصيح:

- «دعونا نخرج من هنا! إن هذه اللعبة بدأت تثير أعصابي.. لا أحب أن يتسلى أحدهم بي..»

لكنّ (ناهد) لحقت بها، فاعتصرت معصمها في عصبية أكثر، وهمست من بين أسنانها:

- «اهدئي يا (هيام).. هذا هو باب غرفة السينما.. وهي من الغرف التي تكلّم عنها الآن!»
- «لا يهمني ما يقول هذا الأحمق.. سأخرج الآن و.....»
- «**اهدئي!!**»
دوّت صرخة (ناهد) المنذرة المخيفة، وأدركنا أنها على حافة الانهيار بدورها.. ورأت الفتاة أن فتح الباب قد يكون خطرًا وقد لا يكون.. لكنّ الخطر الحقيقي الداهم هو (ناهد) التي تحولت إلى نمر شرس، وكان العرق مع الدموع قد غمر وجهها، وسال كل الطلاء الذي دهنت به سحنتها، فبدت كأحد محاربي (الأباش) بعد ما سلخ

رأس الجنرال (كاستر).. منظر مخيف فعلًا..
سألتها في فضول علمي بريء:
- «غرفة سينما؟ هل لديكم غرفة سينما؟!»
أخذت شهيقًا عميقًا، وتراجعت عن الباب، وقالت في ملل:
- «لدى زوجي آلة عرض للهواة من طراز 16 مم.. وهو يهوي مشاهدة الأفلام في هذه الغرفة.. ليست سينما بالمعنى الصحيح، لأن أكثر الأفلام الروائية هي مقاس 35 مم...»
دعوتها إلى الجلوس، ثم طلبت منهم أن يلتزموا الصمت، كي نناقش بنظام ودون هلع موقفنا غير المعتاد هذا.. لست من

هواة استعمال اللغات الأجنبية، ما دام في العربيّة ما يقابلها، لكني رحت أردد مرارًا بالإنجليزية (Don't Panic).. لأن لفظة (Panic) الإنجليزية تعبر بدقة عن الهلع الذي يسلبك القدرة على التفكير، والذي يجعل رواد السينما يتدافعون على الأبواب ويهشمون بعضهم البعض؛ إذا شموا رائحة دخان.. ولسبب كهذا تصمم أبواب قاعات المؤتمرات والمسارح بحيث تنفتح إلى الخارج لا الداخل..

قلت لهم محاولًا أن أكون باردًا عقلانيًا:

- «كما ترون نحن في وضع غير مسبوق.. ما زلت أشعر أن في الأمر مزحة أو دعابة ما، الغرض منها اختبار أعصابنا..»

- «مستحيل!»

كانت هذه من الزوجة التي قالتها دون أن ترفع عينيها، واعتصرت قدح الشاي بين يديها في عصبية، وغمغمت:

- «لو كنت تعرف زوجي لعرفت أنه لا يمزح.. وعندما يقول إنّه ينوي هلاكنا فلك أن تثق في هذا!»

- «هذا هو فصل الخطاب..»

وصببت لنفسي بعض الشاي من البراد الخزفي الأنيق.. كان قد برد تمامًا.. لكني كنت بحاجة إليه.. وأردفت:

- «حسن.. يمكننا إذن أن ننطلق من فرضية ثابتة، هي أنّ هذا الموقف حقيقي.. وهو في رأيي لا يخلو من تشابه مع مواقف شهيرة في الأدب العالمي.. إن من

يخطب الحسناء (بورشيا) في مسرحيّة (تاجر البندقية) عليه أن يختار واحدًا من ثلاثة صناديق.. الصندوق الأول من الذهب.. الثاني من الفضة.. الثالث من الرصاص.. وفي أحد الصناديق تنتظر صورة الحسناء..»

بالطبع يقع كل خطاب (بورشيا) في خطأ أحمق.. إذ يفترض كل منهم أن صورة حسناء كهذه لا بد أن توجد في صندوق من ذهب أو فضة.. فقط بطل المسرحية هو الذي يفطن للمغزى الأخلاقي للموقف، ويختار الصندوق المصنوع من رصاص.. وبالطبع كان هو الصندوق المطلوب..

- «أتذكر أيضًا.....»

في غيظ قالت (هيام):

- «وحياة والدك لسنا الآن في ندوة ثقافية..»

كتمت خواطري وصمت.. وكنت أوشك أن أحكي قصة (ستوكتون) الشهيرة عن الباب الذي تنتظر أميرة جميلة خلفه، والباب الذي ينتظر نمر شرس خلفه.. وعلى الأسير أن يختار أحد البابين.. المشكلة هي أن (ستوكتون) لم ينه القصة قط.. بل أعلن أنه عاجز تمامًا عن إنهائها، لهذا يفضل الانسحاب، تاركًا الأمر لخيال القارئ!

قال الأستاذ (محمود) وهو يعيد حشو غليونه:

- «بل الموقف يحمل روائح من مئات القصص في التاريخ، ومنها قصة ذي

اللحية الزرقاء الذي أهدى زوجته قصرًا به مائة غرفة، لكنه أمرها ألا تفتح الغرفة المائة.. النتيجة هي أن الزوجة صارت حياتها جحيمًا، ما الذي يوجد في الغرفة المائة؟!»

- «إن قيمة الباب المغلق عتيقة راسخة في وجدان الإنسان، ربما منذ اخترع الباب.. وها نحن أولاء نواجه الموقف ذاته بوضوح وفجاجة لم يسبق لهما مثيل..»

ونظرت إلى العيون من حولي، وابتلعت ريقي، وقلت..

- «السؤال هنا هو: ما الذي نتوقعه لو فتحنا الباب الخطأ؟»

سأل الأستاذ (محمود) الزوجة في رفق:

- «هل زوجك يفهم شيئًا في المفرقعات؟»

ابتسمت ابتسامة مريرة بزاوية فمها، وغمغمت:

- «هل تمزح؟ بالطبع لا..»

- «وهل هو بارع في الأعمال المنزليّة؟»

- «كان! لكنّ وضعه الاجتماعي وانشغاله لم يعودا يسمحان له بإصلاح صنبور المطبخ، أو تركيب كشاف من (نيون) لو كان هذا ما تعنيه.. على كل حال أنا لا أثق في قدرته على عمل شيء بالشكل الصحيح..»

قلت في لهجة ذا مغزى:

- «هذا هو بالضبط ما جعله يضعك في قائمة الانتقام هذه.. يبدو أنه تحول بالنسبة لك إلى آلة لجمع المال لا أكثر..»

رشفت رشفة من قدح الشاي الذي تمسكه بكفيها معًا، وقالت:

- «الحق ما تقول.. أحيانًا كنت أتمنى ألا يعود إلى الدار.. فهذا يضيع بعض وقت جمع المال.. ربما كان من الأفضل أن يرسل ما يكسبه إلى الدار بحوالة!»

ابتسمت.. فلم أتوقع هذه الصراحة منها..

وكانت هذه - مع انهيار (هيام) - هي النوادر الأولى لما سيتكرر كثيرًا في هذه الليلة السوداء: انتزاع أقنعة الحضارة واحدًا تلو الآخر.. الظهور دون أي قناع اجتماعي من أي نوع..

حقًا هي تجربة فريدة..

* * *

من جديد تساءل الأستاذ الكبير:
- «ما الذي نتوقعه لو فتحنا الباب الخطأ؟»
- «لن نعرف أبدًا.. لكنّ الحلول السهلة مثل نمر حبيس، أو بعوض يحمل الحمى الصفراء، أو قنبلة تطيح بنا؛ كلها تبدو خياليّة جدًا وبعيدة جدًا..»
- «إذن هو يمزح..»
- «مستحيل!!»
من جديد قالتها الزوجة في ثقة، وكررت مسلمتها الشهيرة:

- «زوجي لا يمزح أبدًا..»
قلت أنا وأنا أضع قدح الشاي:
- «ليكن.. علينا الآن أن نختار ما بين البقاء هاهنا، أو تجربة أحد هذه الأبواب.. والسؤال هو: أي باب؟!»
تبادلنا النظرات.. حقًّا لم يكن هناك من يملك الإجابة.. باب مكتب.. باب غرفة السينما (وهو موحٍ بشيء ما).. وباب غرفة المعيشة الصغيرة.. كلها أبواب كأية أبواب أخرى، ولا يميزها شيء.. وفي ثقب مفتاح كل باب منها استقر مفتاح بريء المظهر فاخر إلى حد مستفز... كأنما يدعونا بصمت إلى الدخول..
ساد الصمت برهة (والبرهة كما يقول اللغويون فترة طويلة من الوقت، لا كما هو

شائع.. الهنيهة هي ما يعبر عن الفترات القصيرة).. ثم تكلَّم الأستاذ الصحفي في تؤدة، وكان ما قاله معقولًا:

- «لننفعل أي شيء.. سننتظر.. وحتمًا سيبحث أحدهم عنا.. سيجئ واحد من مكان ما.. بائع.. محصل كهرباء.. ضيف.. ولسوف يقرع الجرس عندها......»

صاحت (هيام):

- «لكنّ هذا يحتاج إلى وقت.. على الأقل لن يحدث قبل شروق الشمس..»

- «وما هي المشكلة؟ نحن هنا مستمرون في حفلنا البهيج نتبادل مناقشات ممتعة.. البيت ملىء بالطعام والشراب.. حتى الطرب موجود هاهنا..»

وأشار في مماحكة إلى المطرب، فابتسم هذا في عصبية..

قلت وأنا أخلع سترتي:

- «لا بأس.. يبدو لي هذا حلًا مناسبًا بالنسبة لأشخاص لا يسأل عنهم أحد، ولا يهم أين يبيتون هذه الليلة..»

وبدأت الجلسة الثانية لنا..

حقًا لم يكن المرح ثامننا في هذه المرّة..

كانت هناك دعابات لكنّها مخنوقة خجول، وحاول المطرب أن يدندن شيئًا ما.. لكنّ مزاجه كان متعكرًا بحق.. هؤلاء المطربون الجدد لا يمكن لشيءٍ أن يمنعهم من الغناء سوى القنبلة الهيدروجينية، ومعنى صمته هو أن ما نمر به هو بحق كارثة..

في النهاية هبطت موجة المرح كما ارتفعت، ولم يبق من البحر سوى سطح راكد قلق صموت..

وبمرور الوقت تحررنا من وقارنا أو نسيناه.. نزعت (هيام) حذائيها، ووضعت ساقًا تحتها وهي جالسة، وفك الأستاذ الصحفي ربطة عنقه، على حين نسي المطرب التعبير الولهان الأسيان على وجهه، وبدا أكثر مرضًا وأقل رقة، حتى توقعت أن تنزع مدام (ناهد) جمتها الصفراء الثقيلة كي تريح رأسها قليلًا، أو يمد المخرج العجوز يده في فمه ليخرج طاقم أسنانه ويلقيه في كوب الماء أمامي..

كانت مدام (ناهد) أكثرنا راحة طبعًا، فهذا بيتها.. لهذا نهضت مرارًا، وغسلت

وجهها، وعادت لنا أكثر من مرة حاملة شيئًا يؤكل أو يشرب.. ثم تجرأت أكثر فأعلنت:

- «من يرد استعمال الحمام يمكنه هذا..»

وكانت هذه هي جملة الخلاص لنا.. لحسن الحظ أن زوجها المخبول لم يضم باب الحمام إلى القائمة.. لن نموت باحتباس بولي على الأقل...

بدأت (هيام) تغفو بعد كل الطاقة الهستيريّة التي بذلتها، فأراحت رأسها على كتف الشاعرة، وغابت عن الوجود، وهنا نهضت (ناهد) فجلبت غطاء صغيرًا من (التريكو) فرشته على ركبتيها.. وعادت للجلوس..

قلت وأنا أتأمل الأبواب في شرود:

- «الرعب خلف باب مغلق.. لقد جربت هذه القصة مرارًا.. وكانت آخر مرة في (رومانيا) في كهف مظلم.. كان الباب يقود لعالم شيطاني يسمّونه (جانب النجوم) منه يجيء مصاصو الدماء إلى عالمنا!»

- «هراء!»

قالتها الشاعرة في اشمئزاز، وأشعلت لفافة تبغ أخرى..

لم أعلق لأن الجدل مع هذه السيدة مضيعة للوقت.. أحيانًا يكون من الذكاء ابتلاع الإهانات.. خاصة إن لم ينتج هذا عن ضعف..

قال الكاتب الصحفي:

- «ما من أحد منا إلا وكانت له تجربة رهيبة مع باب مغلق... الباب الفاصل بين

عالمين.. بين الجهل والمعرفة.. بين الرعب والتوجس.. بين الانتظار ونهاية الانتظار...»

نظرت إلى الجالسين، وقلت:

- «هذه فكرة لا بأس بها لتمضية الوقت.. لم لا يحكي كل منا قصته مع الباب المغلق؟!»

- «ربما لا توجد قصة..»

- «أشك في هذا.. من يدري؟ إن عدم وجود قصة هو قصة مسلية في حد ذاتها..»

تساءل المطرب الصاعد، وهو يضع عوده جانبًا، كأنه (معبد) وقد فرغ من تعليم المقامات الـ (دنانير):

- «ما جدوى هذا؟»

قلت وأنا أنزع حذائي لأتربع على الأريكة:

- «جدواه ألا يشعر بمرور الوقت أولًا.. جدواه أن نزداد حكمة ويتسع خيالنا.. جدواه لي أن أعرف أكثر.. ظننت هذا السؤال لا يجيء من فنان، وقد امتلأ العالم بمن يشكون في جدوى الفن أصلًا..»

ولكني في سرى لم أجرؤ على اعتبار هذا الفتى فنانًا.. الفن كما أفهمه شيء أكثر رقيًا وشفافية ونورانية.. الفن هو ما يصنعه (رينوار) و(فان جوخ) و(صلاح طاهر) و(موتسارت) و(عبد الوهاب) و(لورانس أوليفييه) و(محمود مرسي)..

نقطة ثانية لا تخلو من الحذلقة: (الفنان) هو الحمار الوحشي في اللغة العربيّة، أمّا

ما نعنيه هنا فهو (المُغن).. وهو نموذج آخر للخطأ الشائع حين يصير هو الصواب الوحيد.. ويحتاج الأمر إلى شجاعة غير عادية كي تكافحه...

قال المخرج العجوز:

- «ليكن.. إن الفكرة تروق لي، وربما ألهمتني بعض أفكار جديدة!»

(أدعو الله ألا يحدث هذا، وإلا كانت سهرة مملة حقًّا).. قلتها في سري، ثم طلبت أن يبدأ السرد من سيبدأ..

- «ومن يبدأ؟»

في تواضع قال المخرج وبلهجة من ينتظر تزلفًا مماثلًا:

- «لو كان بالأكبر سنًا فهو أنا.. ولو كان بالأكبر مقامًا فهو الأستاذ (محمود

عوني)!»

قلت دون أن أوجه له أية مجاملة:

- «إذن يُمكنك البدء يا (سمير)!!»

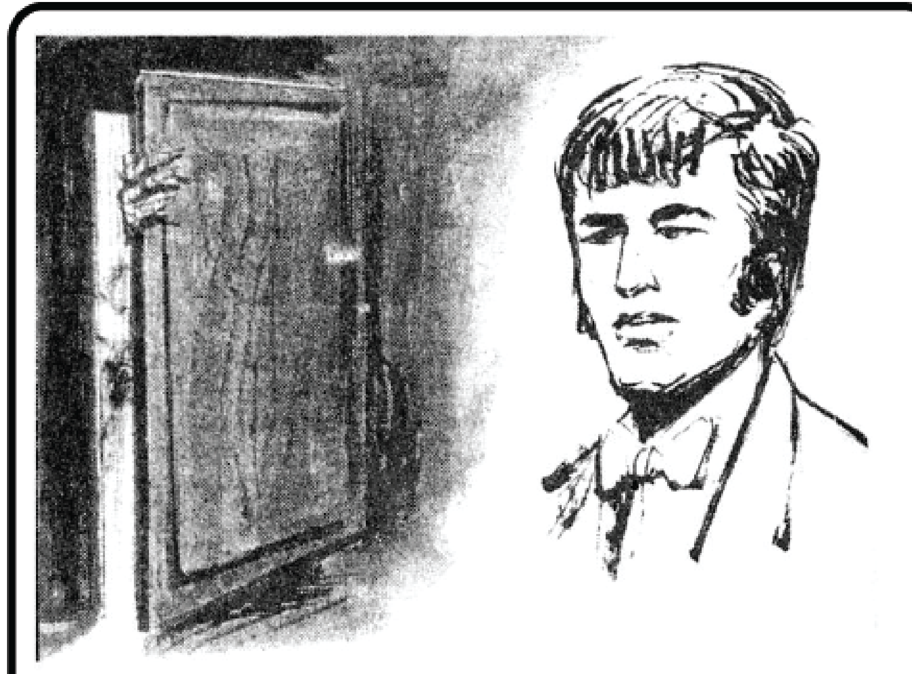
❋ ❋ ❋

وهكذا دارت حلقة الرعب الرابعة.....

ترى كيف دارت؟!

❋ ❋ ❋

البــاب الأول:
موعد مع الأستــاذ



الباب الأول

« موعد مع الأستاذ »

يفتحه : « سمير الصياد »

« هذه القصة لن تنتهي إلا بنهاية من اثنتين :
إما أن الأستاذ العظيم يستعين بالسحر، أو ما هو أسوأ كي يصل إلى إلهامه، وإما أنك تظن هذا ثم يتضح أنك مخطئ! »

- ١ -

راح (سمير الصياد) يلهث، ويشهق وقد سبل عينيه، ممعنا في التهافت كعادته.. وكأنما يقلد (عبد الحليم حافظ) في أفلامه القديمة، حين كان يصارح محبوبته بأنه مريض بمرض مميت..

قال وهو ينظر للسقف:

- «قصتي مع الباب المغلق؟ يا لها من قصة!»

* * *

بيت الأستاذ (عزت عبد الحميد)..

كنت واقفًا هناك أمسح حذائي، في مؤخرة ساقي سروالي، وترتجف يدي في عصبية على العود، وبصعوبة أتمالك أعصابي..

لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي أجيء فيها إلى هذه (الفيللا) الفاخرة في حي (الزمالك).. لقد جئت هاهنا مرارًا.. اشتريت أكثر من رغيف (طرب) من الكبابجي الذي يقع محله في بداية الشارع، وأمشي حالًا حتى (فيللا) الأستاذ لأقف في الظلام وسط غطاء أوراق الشجر.. ألتهم (الطرب) وأشعر به ينفذ إلى روحي مباشرة.. فأحلم.....

أمضي ساعة أو بعض ساعة في المكان ذاته، ثم أرحل مدندنًا بالأحلام، وقد اكتسى

كتفا قميصى بفضلات الطيور التي تغفو بكثافة فوق الأشجار..

(طرب) و(طيور) و(موسيقا).. يا له من مزيج جميل! لقد قضيت معه أعوامًا، وفي روحي امتزج مذاق (الطرب) بأعذب الألحان..

لكن هذه هي المرّة الأولى التي أجئ فيها لبيت الأستاذ (مدعوًا)..

❋ ❋ ❋

كانت بدايتي هي بداية أي مطرب شاب.. نشأت في قرية قرب (الدلنجات) بالبحيرة، ومنذ طفولتي قيل لي إن صوتي يمتاز بشيء ما..

وفي العشرين من عمري بدا أنني لن أصلح لشيءٍ إلا أنّ أكون مطربًا، ونزحت إلى (القاهرة) لأدرس الموسيقا، وأقيم في فندق رخيص من فنادق القباقيب إياها..

اشتركت في عدة حفلات، ووقعت في أكثر من قصة حب كنت أنهيها دومًا - حين أملها - بأن أصارح المحبوبة بأنني مريض بالسرطان، وأغنى لها في شجن:

- «كنت أتمنى يطول العمر، وأعيش لياليه»

ثم أنصرف دامعًا وهي دامعة، لأشتري شطيرتي فول من (مسعد)، وألتهمهما في العشاء، ثم أنام قرير العين، أفكر في حب جديد!

رباه! لقد كانت أيامًا جميلة..

على أن أكثر من قائل صارحني بأنني أضيع شبابي بحق.. صوت جميل كصوتي يستحق أن أكرمة بلحن جميل أو أجمل.. لم يكن لديَّ ملحن سوى واحد من سني يُدعى (عباس)، ولم يكن واعدًا جدًا..

ونصحوني بأن أحاول الاتصال بالأستاذ (عزت عبد الحميد).. فهو يجيد تلميع المواهب الجديدة وصقلها.. ثم إنّه متهاود في أسعاره مع الشباب ولطيف المعشر كما قالوا..

حصلت على رقم الهاتف مذهولًا مبهور الأنفاس، وحاولت مرارًا أن أحصل على موعد، لكنه كان يصغي لي ببرود، ثم يقول عبارته الشهيرة: (ربنا يسهل) أو يعتذر في تهذيب أو غلظة..

ذات مرة طلب مني أن أنشد في الهاتف مقطعًا من أحد الموشحات، ولم أكن مستعدًا له.. بعد ما أصغى إليّ غمغم شيئًا عن عدم حاجته لأكل البيضة كلها كي يعرف أنها فاسدة..

لكني لم أيأس، ولم أقنط...

وفي النهاية وافق على مقابلتي في تمام العاشرة مساء ذلك اليوم السعيد...

❋ ❋ ❋

نزلت من سيارة الأجرة - وكنت في حاجة لذلك، لأن العود معي - ملهوفًا متلاحق الأنفاس، ورحت أرمق الفيللا، الجاثمة في الظلام كأنها المجد ينتظرني..

دنوت من البوابة الحديدية فقرعت جرسًا، ونظرت إلى ساعتي.. إنها العاشرة وخمس دقائق.. تبًّا! شعرت في لهفتي أنّ هذه الدقائق الخمس قد تكون السبب في انهيار مستقبلي الفني..

جاء بواب لا يرتدي الجلباب ففتح لي الحديقة، وكانت هناك كلبته تحاول الوثب لتمزيق أحشائي، لكنه منعها في رفق، واسمها كأية كلبة تحترم نفسها هو (توسكا).. لا بد أنّ هناك قانونًا يمنع تسمية إناث الكلاب باسم آخر..

اجتزت المدخل الذي تم رصفه بقرميد صغير ملون، وتناثرت على جانبيه مصابيح سوداء أنيقة، كمصابيح الشوارع لكنّها أجمل بالطبع..

شعرت بضآلة حقيقيّة.. ترى كم أغنية ناجحة يجب أن أقدم قبل أن أمتلك ثمن ثلاثة عواميد من هذه؟

هنا رأيت من يمشي بين النباتات خارج المنزل، ودنوت منه فعرفته على الفور.. إنّه الأستاذ بشحمه ولحمه كما اعتدنا أن نراه في كل وسائل الإعلام.. أنتم تعرفون منظره المهيب دون شك.. الشعر الأبيض الناعم المنساب كخيوط الفضة.. النظرة (اللوردية) الأرستقراطية من وراء العوينات... الشامة الزرقاء فوق حاجبه الأيمن.. ربطة العنق التي يرتديها بكامل أناقتها تحت روب قصير براق..

فما إن رآني حتى وقف ويداه في جيبي الروب، وغمغم بانبهار:

- «(سمير).. (سمير القرموطي).. أليس كذلك؟»

احتبس الكلام في حلقي، فأشرت لصدري في بلاهة أنه أنا..

قال في وقار، وهو لا يكف عن تأمل وجهي بفضول:

- «هذا ليس اسمًا فنيًا.. (سمير الصياد).. هذا هو اسمك الجديد.. لم نبتعد عن البحر والقراميط كثيرًا!»

وطوح برأسه للوراء وانفجر في قهقهة معدنية مجلجلة كما يظهرون بشوات ما قبل الثورة في السينما.. وقبلت أنا في كثير من التواضع والحياء عملية تبديل اسمي التي لا دخل لي فيها...

ولحقت به إلى داخل الفيللا، بينما هو يتكلم في حرارة:

- «كنت أعني بزهوري.. أنت لا تتصور حساسية البنفسج لهذا الجو الذي نمر به.. ثم إنني كتبت لك لحنًا لا بأس به، وكنت أعتزم أن أضع عليه لمساتي الأخيرة في ظلام الحديقة..»

ثم - دون تحفظ - راح يدندن بصوت عالٍ:

- «را تاتاتارا را را تين.. را تاتاتارا را تين..»

وصمت قليلًا.. ثم قال:

- «أنا لو انساكى حافتكر مين؟ من بعد هواكي حياتي أنين.. هذه هي الكلمات التي تصلح لهذا الوزن.. سأقترح عليك اسم

شاعر مناسب من يجيدون تركيب الكلمات على الألحان لا العكس.. وهو سيكمل لك القصيدة إلى آخرها..»

وكان هذا هو ميلاد أغنيتي الجديدة، التي اشتهرت بها لأول مرة في حياتي..

كيف كان حالي في هذه اللحظات، ومع هذه المودة الزائدة؟ طبعًا يمكنني أن أوفر هذا العناء على نفسي.. كنت ذاهلًا فاقد النطق تقريبًا.. لقد اختارني الحظ فجأة كي يقدم لي كل شيء، ولا أعرف التفسير..

❋ ❋ ❋

كانت غرفته كما تخيلتها بالضبط بلا زيادة ولا نقصان...

يوجد أكثر من عود مزدان بالعاج على الحوائط، مع صورة عملاقة له وهو يبتسم في غموض... صورة لم أحسب قط أن حجمها ممكن.. كما أنّ هناك حوالي خمسة أجهزة تسجيل من ماركات مختلفة، وبعض نباتات الظل أمام نافذة عملاقة تحتل جدارًا كاملًا، ولا يظهر منها الآن سوى سواد الليل تنتثر فيه أضواء الحديقة..

قال لي وهو يجلس واضعًا ساقًا على ساق:

ـ «مشكلتك أنك تقلد (عبد الحليم حافظ) أكثر من اللازم.. وهذا لن يقودك لأي مكان لأن الأصل موجود وفعال.. عليك أن تتميز ولا تمتاز.. عليك بالبحث عن طابع جديد..»

وهنا دق جرس الهاتف، فرفع السماعة وراح يتكلم مع أحدهم في عبارات سريعة مقتضبة لم أفهم منها الكثير..

اختلست النظر إلى الحجرة من حولي.. كان حجمها هائلًا يذكرني بدوار العمدة في قريتي، لكنّ بابا ضخمًا كان ينتظرني في الركن.. ولا أدري سبب ذلك، لكني لم أستطع إبعاد عيني عنه...

انتهت المكالمة، فوضع السماعة وشرد بذهنه بعد هنيهة قال وهو يمتص إبهامه:

- «هذا (عادل شفيق) يريد تعديلًا في لحن أغنيته الأخيرة..»

بانبهار الأغبياء صحت:

- «الأستاذ (عادل شفيق) شخصيًا؟ المطرب؟»

ابتسم في سخرية:

- «طبعًا يا بني.. لا حاجة لي إلى معرفة طبيب أسنان بهذا الاسم.. أرجو أن تمهلني لحظة..»

ونهض في تؤدة متجهًا إلى ركن القاعة، حيث كان الباب الخشبي الضخم الذي لم تفارقه عيناي..

فتحة، وللحظة رأيت ضوءًا أحمر غريبًا يخرج من ورائه، وفي اللحظة التالية كان الباب قد انغلق وجلست وحدي..

وضعت العود الخاص بي على الأريكة، ورحت أتأمل المكان.. لشد ما تمنيت رؤية عملية الخلق لدى هذا الرجل العظيم.. يقول من يعرفون (محمد عبد الوهاب) إنّه لا يكف عن الزوام كالقطط في سرّه، من

فرط الألحان التي تحتشد في ذهنه.. ويقول من عرفوا أمير الشعراء (أحمد شوقي) إنّه دائم الشرود، وكثيرًا ما يخرج علبة التبغ ليدون عليها بخط صغير بعض أبيات أتاه وحيها فجأة..

ترى ما هو دور الوحي في حياة الأستاذ (عزت عبد الحميد)؟

إنّه لمشهد مثير حقًّا.......

جلست أنتظر.. أصخت السمع والخيال إلى ما وراء الباب المغلق، وهنا خيل لي أنني أسمع صوتًا غريبًا.. صوتًا أقرب إلى شهيق الغريق في اللحظات المريرة التي يرتفع فيها لسطح الماء، فيحاول أن يعب الهواء عبًا، فلا يجني سوى ملء رئتيه بالفقاقيع..

ها آآآآه! هااااه! ها آآآآه!

وتكرر الصوت نحو عشر مرات.. ثم دوى صوت شيء يسقط أرضًا..

بوم!

* * *



اننى أسمع صوتاً غريباً .. صوتاً أقرب إلى شهيق الغريق .

- ٢ -

قال (سمير الصياد) بصوته المبحوح:
هرعت إلى الباب فدققته في أدب مرارًا، وقلت:
- «هل من شيء أفعله يا أستاذ؟ هل أنت بخير؟»
مرّت فترة أطول من اللازم، ثم سمعت الباب ينفتح ورأيته يخرج..
كان في أحسن حال.. بأناقته المعهودة وانتعاشه، لكنّ شيئًا من التحفظ سرى إلى أسلوبه في الكلام، وقال لي:
- «لا داعي للقلق.. فلا أجد ما يدعوك للسؤال..»

ثم دعاني إلى الجلوس، ومد يده إلى عود مزخرف ملقى على إحدى الأرائك، فراح يدندن عليه لحنًا لم أتعرفه، وثني جذعه ليدون شيئًا من نوتة موسيقية على بعض الأوراق أمامه...

ثم حرّك شفتيه في استمتاع كمن يتلمظ:

- «هكذا.. لا بأس على الإطلاق..»

* * *

قلت للفتى وأنا أفرد ساقي طلبًا لإراحتهما:

- «هذه القصة لن تنتهي إلا بنهاية من اثنتين إما أن الأستاذ العظيم يستعين بالسحر، أو ما هو أسوأ كي يصل إلى

إلهامه، وإما أنك تظن هذا ثم يتضح أنك مخطئ!»

ابتسم المطرب الشاب كمن حوصر في ركن من الحلبة، وقال:

- «هكذا لا تترك لي مجالًا لإكمال قصتي يا د. (رفعت).. إن قصتي أغرب على كل حال..»

هنا تدخل الأستاذ (محمود عوني):

- «لا يجب أن تكون كل القصص جديدة لا يمكن التنبؤ بنهايتها يا د. (رفعت)، وإلا كان من الخير لنا أن نظل صامتين..»

قلت في شيء من خجل:

- «معذرة.. لكني إن اشتهرت بشيء فبسرعة الملل.. يخيّل إلى أن كل ما يحدث

ويُقال من حولي، قد حدث وقيل من قبل، لكنِّ الناس جميعًا نسوا ما عداي!»

حقًّا.. كان هذا هو الشعور الذي ضايقني طيلة حياتي..

في التسعينات كتبت الصحف عن حادث الزوجة التي قتلت زوجها، ووضعت أشلاءه في أكياس بلاستيكية.. أصيب الناس بالهلع، وراحت الصحف تكتب عن (الدموية التي تسربت إلى نفسية رجل الشارع) وعن تغير أنماط الجريمة في (مصر) وعن.....

لم يصدقني أحد حين قلت إن هذه الجريمة حدثت مرارًا في الثمانينات والسبعينات والستينات، وربما كانت تحدث قبل اختراع الأكياس البلاستيكية، لكنّ الجميع نسوا

ببساطة، وصرت أنا المخبول الوحيد، وغير هذا كثير..
ولكن دعونا نصغ لقصة الفتى إلى نهايتها..

* * *

قال (سمير الصياد) بصوته الولهان:
- «توطدت صداقتي مع الأستاذ، ورحت أتردد على داره ثلاث مرات أسبوعيًا.. وأخيرًا جاءت اللحظة التي دخلت فيها (ستوديو) الصوت كي أسجل رائعتي الأولى.. «أنا لو أنساكي حافتكر مين..»، وبعدها قدمت رائعتي الثانية: «الحب اللي جاني.. غير الأولاني!»

بدأت الشهرة تنمو ببطء، واشتريت سيارة نصف عمر، ودُعيت إلى بعض حفلات، حيث كان عدد لا بأس به راغبًا في سماعٍ (الحب اللي جاني).. وفي الواقع كنت مدينًا للأستاذ بكل شيء.. حقًّا صدق من قالوا: إنّه هو الحل السحري للمبتدئين في الغناء.. بشرط أن تروق له أولًا!

وضع ألف خط تحت هذه العبارة.. لماذا اختارني الرجل بالذات بعد ما وصف صوتي بأنه (بيضة فاسدة)؟ ولماذا احتفى بي كل هذه الحفاوة.. قد يقول قائل: إنّه غير وجهة نظره في صوتي، ولكن متى أعاد سماعه؟

دائمًا ظلت علامة الاستفهام معلقة.. بلا جواب..

* * *

علامة استفهام الثانية كانت تحيط بالباب المغلق..

ما الذي يفعله الرجل خلف هذا الباب المغلق؟ في كلّ مرّة يبحث فيها عن إلهام جديد كان يعتذر، ثم ينسحب إلى هناك، وتمر دقائق بعدها يعود إليّ بالجواب.. والجواب دائمًا جميل متقن.....

هنا تدخلت - آنا (رفعت إسماعيل) - في الموضوع - وسألته:

- «هل أنت واثق من أن ما خلف الباب المغلق ليس دورة مياه؟ كثيرًا ما يجيء الإلهام في الحمام للعظماء!»

ابتسم (سمير) كأنما كان يتوقع هذا، وقال:

- «كل الثقة.. الناس لا تشهق في الحمام كالغرقى، وتدخل في إغماءة.. هذا هو الصوت الذي أسمعه..»

- «حقًّا هذا غريب.. وبالطبع قمت أنت بفتح الباب يومًا..»

- «كيف عرفت؟»

- «أنا أعرف البشر.. لقد قتل الفضول القط كما قال الإنجليز منذ دهور..»

- «حقًّا فتحت الباب..»

وشردت عيناه إلى بعيد.. كان يتأمل المقبض الذهبي الغليظ..

* * *

لقد تركه الأستاذ، ودخل الغرفة المغلقة، ولبضع دقائق ظل جالسًا وحده يتأمل الباب في نهم.. المقبض الذهبي ـ المُذهّب للدقة اللغويّة ـ الذي ينتظر يدًا جريئة تفتحه..

أخيرًا سمعت صوت الـ (هاآآه**!** ها آآه**!**) المميز.. بعده صوت ارتطام المدوي، وكانت هذه هي اللحظة المناسبة..

وثبت إلى الباب وفتحته، وبحذر سكبت عيناي من الفرجة الضيقة التي أحدثتها..

كانت غرفة ضيقة جدًّا كأنها القبر، باردة إلى حد لا يمكن تصديقه، جدرانها حمراء تمامًا، عليها زخارف غريبة غير منسقة..

أما أغرب شيء في الموضوع فهو أنها كانت خالية تمامًا.. لم يكن بها أحد، ولم

يكن الوقت كافيًا كي أبحث عن مخابئ في أي مكان بها..

تملكني الهلع بحق، وفي اللحظة التالية قف شعر رأسي، لأنني لمحت ما يشبه التجسد في مركز الحجرة.. التجسد الذي يتخذ هيئة إنسان ملقى على وجهه على الأرض..

أغلقت الباب وعدت لمكاني، وأنا أنتفض كورقة....

❋ ❋ ❋

حقًا لم يكن الأستاذ بشريًا..

لم يكن ينتمي لعالمنا، ولا قواعدنا الماديّة الصارمة..

لقد اختفى بلا تفسير من غرفة مغلقة، وهو لا يجيد ألعاب الحواة، ولو كان يجيدها، فلماذا يمارسها وهو وحيد؟!

وانفتح الباب أخيرًا ليدخل الأستاذ، وفي هذه المرّة لم أستطع حتى أن أتحمل لمسة ساقه لساقي، وهو يحتك بها في أثناء عودته لمجلسه..

كنت أخشاه كثعبان، ولكني حرصت على ألا يرى هذا في وجهي، على أن أبادر بالفرار عند أول فرصة، فلا أعود هاهنا أبدًا..

راح يدندن كعادته محاولًا تذكر إلهامه الأخير.. كتب ما قال في وريقة صغيرة، ثم سألني عن سر شرودي، فابتكرت إجابة مرتجلة:

- «إنّه الاكتئاب.. الاكتئاب.. ربما الخوف من ألا أقدم جديدًا..»

نظر في عيني طويلًا حتى كدت أصرخ، ثم - دون مقدمات - سألني:

- «هل تؤمن بالجان؟!»

* * *

سؤال غريب في لحظة غير مناسبة على الإطلاق.. قلت له بعد ما بلعت ريقي:

- «الجان مذكور في القرآن الكريم.. هذه إجابة كافية على ما أظن..»

عقد يديه على صدره، واسترخي في مقعده، وقال:

- «لنضع السؤال بطريقة أخرى... هل تؤمن بقدرة البشر على تسخير الجان؟!»
- «لا أدري يا سيدي.. لا أدري..»
ما الذي يرمي إليه ولأية ورطة يقودني؟
قال وهو ينظر إلى السقف:
- «قديمًا كان العرب يعتقدون أن الشعراء يأتيهم الإلهام من جان وادي (عبقر).. فيما بعد كثر التعبير عن الإلهام بي. (جنية الموسيقا) و(شيطان الشعر) و.... و... هل تعتقد أن كل هذا خالٍ من الصواب؟»
وقف شعر رأسي إذ فكرت في معنى هذه المحادثة.. لقد صار الموضوع واضحًا إذن..
نهض وراح يذرع الغرفة جيئة وإيابًا ويداه في جيبي روبه، وقال كأنما يكلم

نفسه:

- «هذه هي الطريقة.. هكذا يتحول موسيقار نصف موهوب مثلي إلى عبقري، ببساطة حين يتعلم الطريقة المثلى، وحين يقبل أن يحمله الجان إلى مملكتهم الجهنمية.. إن الأمر غريب لا يصدّق، لو رأيته لحسبته نوبة صرعية.. أمّا بالنسبة لموضوع التجربة، فالأمر شبيه بالموت.. بانتزاع الحياة من حلقومه..»

وابتسم ابتسامة خبيثة، والتفت لي:

- «هل تحسبني أحمق؟ لماذا لم أغلق الباب على نفسي؟ لماذا تركتك تتسلل كما يتسلل القط إلى المطبخ، ليسرق فخذ الدجاجة؟ لأنك مثلي تحمل العلامة.. يقولون إن هناك علامة.. وهذه العلامة

ترشح المختارين للاتصال.. أنا رأيتها حين قابلتك في حديقة الفيللا، وكنت أزمع طردك بشيء من الرفق.. عندها تغير مسلكي تمامًا، كما لا بد أنك لاحظت؛ لأنني عرفتك على الفور.. العلامة! لا شيء يميزنا سوى هذه العلامة!»

وأشار إلى الشامة الزرقاء فوق حاجبه الأيمن..

عندها سقط قلبي في قدمي، وتحول عمودي الفقري إلى عمود من الجليد...

أنا أملك شامة مماثلة.. هذا هو السر إذن..

قال في شيء من الشراسة:

- «والآن لا توجد أنصاف حلول: أنت معنا أم ضدنا؟ اختر!»

- «لااه!»

قلتها وأنا أثب كالزنبرك من مقعدي، ونظرت لوجهه فوجدت أنه قد تبدل إلى حد مروع.. لم أره من قبل بهذه الشراسة والتوجس...

وفي ثوان كنت قد اندفعت إلى الباب، إلى الحديقة، إلى باب الفيللا الحديدي، ورحت أضربه وأهزه في جنون.. بينما الكلب ينبح، والبواب يحاول إقناعي بالانتظار حتى يفتح لي بالطريقة العادية المحترمة..

بعد لحظات كنت قد ابتعدت كثيرًا جدًا عن المكان والزمان والحدث..

* * *

ومن يومها لم تلمس قدماي شوارع الزمالك..
صحيح أنني لم أكف عن الغناء، وكانت لأغنيتيه لمسة لا بأس بها في حياتي الفنية، لكني - وهذا مفهوم - لم أكن على استعداد قط لرؤية وجهه من جديد..
كثيرون تساءلوا عن سبب انقطاع صداقتنا، وأقنعوا أنفسهم بأن الرجل قد انتظر مني أشياء، وتوسم في صوتي أشياء، لم أحقق منها شيئًا.. وبالتالي قرر أن يتخلص مني...
لكني لم أتكلم.. فقط رحت أحاول أن أجد جراحًا بارعًا يزيل تلك الشامة فوق حاجبي.. لكنّ الأطباء نصحوني بألا أفعل..

إن الجراحة قد تترك أثرًا لا يفضل الشامة في شيء..

وحكيت القصة لأحد المطربين، فأغرق في الضحك، وقال:

- «هل نجح في خداعك؟ إن الأستاذ يداعب ضيوفه مداعبات عملية قاسية ليست هذه أسوأها.. وأعتقد أنه مل صداقتك، فقرر أن ينهيها بفاصل تمثيلي جيد يحكيه لضيوفه في سهرة ضاحكة..»

- «والاختفاء؟»

- «إنّه ثرى ويملك القدرة على بناء أكثر من جب سحري في تلك الغرفة.. هذه ألاعيب حواة..»

لكني لم أنس قط، ولم أجد تفسيرًا:

لو صدقنا كل هذا فكيف حدث التجسد البطيء؟ كيف تغيرت ملامحه بهذه السرعة، كأنما أعظم ممثلي الكون؟

شيء في روحي يخبرني أنه كان صادقًا، وأن ما حدث حدث فعلًا..

لقد كان الهول ينتظرني خلف الباب المغلق..

وما زال ينتظرني في منامي كل ليلة!

❋ ❋ ❋

البـــاب الثـِـانـــي:
مع الـحَـطَمَة!



الباب الثاني

« مع الحَطَمَة! »

تفتحه : «نادية فهيم»

«كنت أراه يزحف في بطء، خارجًا من البحر، يجر جسده بصعوبة.. لكن بإصرار، عازمًا على أن يقضي ليلته تحت سقفي، لا يفصلني عنه سوى باب يملك هو وحده مفتاحه! »

- ١ -

ساد الصمت إلا من أنفاسنا، وقد راح كل منا يتصوّر القصة في خياله بمواقع تصوير وممثلين مختلفين لا يجمع بينهم إلا (سمير الصياد)..

تساءلت مدام (ناهد) في حيرة محاولة التذكر:

- «هل (عزت عبد الحميد) له شامة فوق حاجبه؟»

قال (سمير) وهو يتثاءب:

- «له.. لكنّ لكي تلاحظيها لا بد من أن تكوني المعجبة رقم واحد به مثلي.. أو مثلما كنت..»

قلت وأنا أتأمل الوجوه:

- «لا بأس.. في القصة الأولى كان الباب هو الممر إلى وادي (عبقر)، أو ربما دعابة سمجة من ملحن ثرى قاس.. من يحكي القصة الثانية؟»

كانت (ناهد فهيم) شاعرتنا الـ (فيمينست) ترمقنا في شرود، وهي تريح أصابعها المصبوغة التي تحمل لفافة التبغ على ذقنها.. فلمّا رأتني أنظر لها قالت في ضيق:

- «أنا لا أملك قصصًا مماثلة، ولا أنوي لعب دور (شهرزاد)..».

- «لكنك لا تستطيعين لعب دور (محمد على كلاي).. إن (شهرزاد) كانت قوية بطريقتها، واستطاعت خداع عتل صفيق

مثل (شهريار) بقصصها الممتعة.. هذا لم يتضمن أية تنازلات من أي نوع»
وألحت عليها (ناهد) في رقة مصطنعة:
- «أرجوك يا (نافي) أن تحاولي!»
(نافي)؟ يا له من اسم غريب للتدليل.. (نادية فهيم) قد تحولت إلى (نافي)، فلن تنتهي الأمسية قبل أن أتحول إلى جثة أو إلى (رفرف) دون شك، وكلاهما أسوأ من الآخر..
حولت (نادية) شفتيها إلى دائرة التخرج حلقة دخان كاملة الاستدارة، لا يستطيع أعتى المدخنين الرجال أن يصنعها، وقالت:
- «حسن.. لدي قصة عن باب... ولا يهمني ألا تروق لكم، لأنني لا أستمد ثقتي

من الآخرين.. أنا كائن متكامل و(Self-managed) أو هذا هو ما كافحت من أجله طيلة حياتي..»

ـ «أصغوا إليّ إذن..»

* * *

سعلت الشاعرة الغضبي (نادية فهيم) مرّتين، ثم قالت:

ـ «متفردة أنا.. متوحدة.. متنائية عن كل القطيع.. لكم حاولت أن ألحق بموكب السارين ليلًا، لكنّ خطاي لم تكن كخطاهم، وقامتي لم تكن كقاماتهم، وأحلامي لم تكن كأحلامهم..

لذا تفردت، وتمثلت مقولة (رانبو) الشاعر الفرنسي: أنا آخر.. Te Suis un «..autre

تنحنحت، وبحذر قلت لها:

ـ «أ.. معذرة.. إننا في ظروف أسود من قلب الكافر، وكنا سنقدر لو تكلمت بشيء من التبسيط.. حتى الشاعر يمكن أن يقول كلامًا عاديًا أحيانًا!»

مطت شفتيها في اشمئزاز، وقالت:

ـ «أرأيت؟ أنت كذلك واحد من السارين ليلًا.. لهذا أشمخ برأسي في عليائي - حيث يحلم الطحلب الزغبي - وأزدريكم يا سادة.. صادقة أقولها.. حارة أقولها.. لاهبة أقولها!»

* * *

«بحياتي أبواب عشرة...
وحكايا عن جيش البربر...
والباب الموصد في قلبي...
يتحدى فرسان الغازي...
من منكم يدنو؟
أو يجسر؟»

* * *

ربما تعلمون أنني تزوجت مرّتين، وكان الطلاق هو النهاية في كلّ مرّة.. إن الرجال لا يحتملون المرأة التي تطالب ألا تعامل كامرأة..

هاك يا صغيرتي ما سيحدث:

سيجلس معك، ويكلمك عن (سارتر) وعن الوجودية، ويتلو أبياتنا من شعر (لوركا)، ويقول لك كلامًا كثيرًا عن انبهاره بعقلك، وأنه للمرة الأولى - يلقى المرأة التي تبدو كامرأة، وتفكر كرجل..

سيقول إن حياتك معه لن تختلف عن سلسلة من الأعياد الفكرية والمهرجانات العقلانية... لقد حان الوقت لنفهم ذلك الكائن المدعو (حواء) حق الفهم...

سيقول هذا وأكثر يا فتاة، ولسوف تصدقين.. كيف لا تصدقين هذه الكلمات من رجل رزين أنيق في منتصف العمر، عرك الحياة وعركته؟

ولن يمرّ وقت طويل حتى تجلسي جواره في (الكوشة) - إلى يمينه على وجه الدقة - وأنت تحلمين كمراهقة صغيرة..

بعد أشهر - لو حالفك الحظ - ستدركين الحقيقة.. إن الجمال عند الرجل أهم من أي عقل.. طبق الفول بالزيت على مائدة الإفطار أهم من كل كتابات (سيمون دي بوفوار).. مباراة الأهلى والزمالك أهم من ندوة شعرية يتكلم فيها (أبو العلاء المعري) شخصيًا لو أمكن هذا..

تدريجيًا تدركين أبعاد الخدعة، وتدركين أن الدور المختار لك هو دور الزوجة لا أكثر ولا أقل..

ستثورين يا فتاة.. لكنك ستتلقين كلمات قاسية جدًا، ربما بعض الصفعات كذلك لو

كان زوجك شرسًا مثل زوجي الثاني..

ستكون معاناة طويلة، حتى يتم الطلاق، بعدها تقررين ألا تكرري الخطأ ذاته.. لكنّ سرعان ما يظهر رجل رزين أنيق في منتصف العمر، يحدثك عن (سارتر) ويتلو عليك شعر (لوركا)..

عندها تقولين لنفسك: لعل الأمر مختلف هذه المرّة؟

❋ ❋ ❋

تم زواجي الثاني في بداية الشتاء..

بعدها رحلت مع زوجي (هشام) - وهو صحفي كما تعلمون - إلى شاليه في (بلطيم) يملكه أحد أصدقائه.. وكانت

(بلطيم) في هذا الوقت شبه خالية من الشاليهات والمصطافين كذلك، لأننا كنا في الشتاء، وحتّى في فصل الصيف كانت الإسكندرية - خاصة (العجمي) - هي المصيف المرموق الذي يحلم به الجميع..

كان الشاليه يتكون من أربع غرف.. اثنتان منهما موصدتان بالمفتاح، وقد تركت لنا غرفتان هما كافيتان تمامًا..

وضعنا حقائبنا.. وقررنا الخروج للنزهة على الشاطئ.. بالطبع ارتدي كل منا ثيابًا شتوية ثقيلة، فالطقس لم يكن يسمح بالمزاح.. وكانت الأمواج ثائرة كأنما ضاقت بالبحر المتوسط، وودت لو فتح لها أحدهم الباب إلى المحيط...

مشينا بضع دقائق، وفي نفس كل منا شك لا يعترف بيه: هذه المعطلة لن تكون ناجحة جدًّا.. صحيح أننا متفردان.. تنائينا عن القطيع.. لكنّ كل هذا الفراغ الأثيري لم يكن ليناسبنا حقًّا..

لقد أنهينا أكثر ما لدينا من كلمات وملاحظات ودعابات، ونحن نمشي متشابكي اليدين بمحاذاة الشاطئ.. خمس دقائق لا أكثر.. والمفترض أن لدينا أسبوعًا كاملًا، فماذا نعمل فيه؟

السماء مكفهرة تنذر بالويل، والبرد قارس، وهدير الأمواج يقتل كلماتك ما إن تغادر فاك..

قلت له بعد ما حاولت إشعال لقافة تبغ ست مرات:

- «فلنعد إلى الشاليه...»
رفع كفه بمجافاة حاجبيه، ونظر للأفق، ثم قال:
- «ثمّة أناس هناك...»
- «أناس؟ غريب! حسبتني المجنونة الوحيدة هنا..»
وبالفعل ازداد المشهد وضوحًا إذ دنونا أكثر..
كان هناك عشرة من الرجال يقفون على الشاطئ، ورذاذ الموج يغمرهم من آن لآخر فتحتقن العيون، وتسعل الرئات، تعقبها البصقات.. وكان واضحًا من منظرهم أنهم يؤدون عملًا خطرًا أو يناقشون أمرًا جللًا..
دنونا أكثر، ثم سمعت (هشام) يقول لي:

- «لا تنظري!»
وكان هذا بمثابة أمر لي كي أنظر، ونظرت..
على الرمال رأيت ما يشبه جسدًا آدميًا في قميص وسروال، عاري القدمين، مبتلًا تمامًا.. غريق.. هذا واضح.. غريق تأخر إنقاذه كثيرًا جدًّا جدًّا...
كان منتفخًا، برز لسانه وارتسمت أوردته كالشجيرات على جلده.. بينما الرغاوي البيضاء تسيل من شفتيه، وحقًا لم أر غريقًا من قبل، ولم أكن سريعة التأثر.. لكنّ المشهد أثار هلعي بحق..
ما زال بوسعي أن أرسمه بدقة على الورق لو أردت..

كنت أقاوم هذه النوازع الأنثوية في نفسي - دليل عبودية قرون طويلة - لكنني لم أستطع أن أمنع شهقة، ثم أدرت ظهري للمشهد، وبدأت أتهانف..

من وراء ظهري سمعت (هشام) يتساءل:

- «كيف نزل البحر في طقس كهذا؟!»

صوت خشن يقول:

- «لم ينزل يا أستاذ.. لكنّها جذبته!»

- «من هي؟»

- «الْحَطَمَة طبعًا.. ربنا يحفظنا..»

صوت آخر يقول:

- «لا بد أنه في البحر من أسبوع على الأقل.. حالته تقول ذلك»

الصوت الأول يقول:

- «لا تحاول وزوجتك المشي على الشاطئ ليلًا.. لا تؤاخذني.. أنت غريب، والغريب أعمى ولو كان بصيرًا! هذا البائس لم يعرف هذا.. أو عرفه ولم يصدّق!»

* * *



رأيت ما يشبه جسدًا آدميًا فى قميص وسروال ، عارى القدمين مبتلاً تمامًا .. غريق .. هذا واضح ..

- ٢ -

دفنت (نادية) ما تبقى من لفافة تبغها في المطفأة الزجاجيّة، ومدت يدها إلى العلبة بحثًا عن أخرى، فطقطقت بلساني معترضًا:

- «إن هناك وسائل أكثر رحمة للانتحار... ليس بهذه الكثافة..»

والحقيقة هي أنها كانت شخصيّة عُصابية كما خلق العَصاب.. ولو أن (فرويد) نهض من قبره ورآها لمات فرحًا من جديد**!**

أحجمت.. فسألتها:

- «كانت لي مغامرة ما مع الحَطَمَة.. إنها نداهة البحر التي تدعو الشباب اللحاق

بها،فالغرق... هل هذه هي القصة هنا؟»
هزت برأسها في عصبية:
- «لا.. واضح أن حَطَمَة (بلطيم) هذه كانت من النوع الذي يخرج يده من تحت الماء، ليقبض على سيقان من يمشون على الشاطئ.. إن أساليب الحَطَمَات تختلف كما تعلم..»

❋ ❋ ❋

قالت الشاعرة الحانقة دومًا:
- «أفسد هذا المشهد يومنا تمامًا.. كما تتوقعون..
عدنا إلى الشاليه فتناولنا غذاءنا من المعلبات في صمت.. لاحظت في اشمئزاز

أن (هشام) يملأ فمه بالطعام كالخرتيت قبل أن يبتلعه.. كان يأكل برقة العصافير حينما كان يخطب ودي، وكان يقضم حبة العنب على ست مرات.. وبدأت أشم رائحة التحول إياها..

صارحته بهذا، فابتسم ولم يعلق...

بعد الغداء لاحظت أنه يسلك أسنانه بعود ثقاب، ولما فشل مزّق قطعة خيط من كم منامته وراح يمررها بين الأسنان وبعضها، على سبيل الـ (Floss) المرتجل..

صارحته بهذا، فابتسم ولم يعلق...

أحضر جهاز الـ (بيك أب)، ووضعه على المنضدة، ثم انتقي أسطوانة لمطربة شابة اشتهرت بأغانيها عديمة المعنى، وكنت قد

جئت بعدة ألبومات لـ (فاجنر) و(جانيس جوبلن)..

صارحته بهذا، فابتسم ولم يعلق...

أدرت أسطوانة لـ (فاجنر)، وجلست منتظرة أن يبدأ في الحديث الرومانسي معي، لا سيما لو كان ذا طابع ثقافي.. لكنه راح يحكى دعابات سمجة عن الحموات الشرسات، والزوجات المتسلطات، و... و... حاسبًا أنّ هذا يجعله أقرب لقلبي، وينهي كل دعابة بـ (هاع هاع هاع هاع!)..

صارحته بهذا، فابتسم ولم يعلق...

جلس بمنامته ورفع قدمًا يريحها على المقعد، ثم راح يعبث في أصابع قدميه باستمتاع كما يحبّ الرجال أن يفعلوا..

صارحته بهذا، فانفجر في..

قال لي إنّه لم يتلق كل هذا القدر من الانتقادات منذ كان طفلًا في الرابعة من عمره، وإن أمّه لم تبذل كل هذا الجهد التربوي معه، وإننى بالتأكيد إنسانة متسلطة قررت أن تتحكم في كل التفاصيل، في أول نصف ساعة من حياتنا الزوجية..

راق لي هذا.. فالحرب هي أرضى التي أشعر فيها براحة حقيقيّة..

«من منكم يدنو.. أو يجسر؟»

بدأت معركتنا الأولى، ولم تكن عنيفة جدًا بطبيعة الحال، لكنّها انتهت به صامتًا كالأسماك، وبي أشعل لفافة تبغ في عصبية..

وفي المساء تشاجرنا ثانية مع صوت الأمواج..

في الصباح لاحظت في ضيق أنه يريد أن يلتهم الإفطار دون أن يغسل وجهه، وهكذا تشاجرنا مرة ثالثة..

عند الظهيرة تشاجرنا بعنف، لأنّه يريد أن يخرج النزهة، بينما أنا مصرة على أن نجلس ونستمع لـ (فاجنر)، والأدهى أنه دعا بخراب بيت (فاجنر) وكل أحفاد (فاجنر) إلى يوم الدين..

- «من فضلك.. أريدك أن تكون متحضرًا.. لا أسمح لك بسب (فاجنر)!»

- «هذا خير من أن أسبك أنت أيتها المتسلطة!»

وغادر الشاليه غاضبًا، والحقيقة هي أننا أحرزنا سبقًا هائلًا في عصر السرعة هذا.. لقد حققنا خلال أربع وعشرين ساعة من الجفاء والنفور ما يحققه سوانا في عشر سنوات!

* * *

عند المساء جاءني يتودد، طالبًا الصفح، لكني قررت أن أواصل المعركة للنهاية، وأعلنت رأيي في أنه يحاول أن يفرض على سيطرته، وهكذا تشاجرنا للمرة الـ... لا أذكر كم.. وغادر الشاليه غاضبًا معلنًا أنه لن يمضي الليلة فيه..

- «وأين ستذهب إذن؟»

- «هذه مشكلتي لا مشكلتك..»

يا له من نصر! لقد نجحت في استفزازه إلى حد أن يهجر البيت من ثاني يوم لزفافنا.. وهو نصر لم يتحقق مع زوجي الأول إلا بعد سنة كاملة...

وهكذا جلست وحدي، وأدرت أسطوانة (فاجنر) بأعلى صوت ممكن، ثم رحت أقرأ أشعار (إليوت)، وأنا أقول لنفسي: حقًّا لم أنخدع، وكانت توقعاتي صائبة.. كل الرجال سواء.. ما إن تغمدى سيفك لحظة حتى يحاولوا أن يحزوا رقبتك بسيوفهم..

كلهم يتظاهر بالشيء ذاته، وكلهم. في الحقيقة ـ الشيء ذاته..

ألا تبًّا لهم!

❋ ❋ ❋

بحياتي أبواب عشرة..
وحكايا عن جيش البربر...

❋ ❋ ❋

على أنني - عند منتصف الليل - بدأت أشعر بقلق غريب..
كان السكون تامًا إلا من صوت البحر الثائر، أتخيّل أمواجه السوداء العملاقة كجبال، فأرتجف هلعًا وأقشعر..
إن خوفي ضعف.. والأدهى أنني كنت سأغدو أكثر راحة لو كان الرجل بجانبي،

لكني ضغطت على أعصابي، وواصلت القراءة..
وفي الواحدة صباحًا سمعت الصوت من وراء الباب المغلق..

* * *

كان هناك من يتحرك في الحجرة الأولى.. سمعته وقد انتهى صخب (فاجنر).. الحجرة التي لا أملك مفتاحها..
دنوت من الباب، وأصخت السمع، ثم ألصقت أذني.. وكان ما سمعته هو صوت إنسان يلهث.. يلهث في تعب.. يلهث في جشع للهواء.. يلهث كما يلهث الغرقى!

دنوت أكثر وطرقت الباب بسلامية سبابتي، وفي صوت كالهمس تساءلت:
- «من هنا؟»
فكرت في أن أرفع طبقة صوتي أكثر، ثم عدلت عن هذا.. لا أريد ألا يجيء الرد.. سيثير هذا رعبي، والأفظع أن يجيء الرد!
كان صوت شيء خشبي يرتطم بالداخل.. أدركت دون عسر أنه مصراع النافذة الخشبي إذ تحركه الرياح..
أيا من كان بالداخل، فقد دخل من النافذة، والنافذة منخفضة في مستوى قامة الإنسان، وتحتها تبة صغيرة من الرمال..
وأصخت السمع أكثر فأكثر..
كادت أذناي تمتزجان بالخشب، وأنا أحاول التركيز..

لا جدال في أنّ هذا صوت لهاث..

* * *

تمالكت أعصابي، وأشعلت لفافة تبغ بيد مرتجفة.. لا يجب أن تضعفي يا (نادية) لا يجب.. أنت لست فتاة واهنة هستيرية..

اتجهت إلى الحقيبة في غرفتنا، فانتقيت سكينًا هائلة الحجم، وخرجت لأرفع صوت الموسيقا إلى أعلى درجة ممكنة..

الآن أغادر الشاليه.. يجب ألا أبقى فيه لحظة أخرى..

لماذا لا أبقى في غرفتي؟ لأنّها لا يمكن غلقها.. فهي لا تغلق إلا بمفتاح ليس معي.. وليس لبابها مزلاج من أي نوع..

لماذا لا أبقى في الشاليه؟ لأن الشخص - أو الشيء - الموجود في الغرفة يملك مفتاح الغرفة! كيف عرفت؟ لأنني سمعت صوت المفتاح يدور في الكالون من الداخل!.

وضعت على كتفي معطفًا، وانتعلت حذائي، وبحذر فتحت باب الشاليه، شاهرة السكين في يدي..

هذه هي فائدة الرجال الوحيدة.. أن يتقدموا الأنثى في مواقف كهذه، كي يتلقوا الطعنة الأولى، ويتركوا للأنثى فرصة الفرار..

أخيرا وقفت بالخارج في الظلام..

الريح لا تكف عن العواء.. وتمضغ معطفي كما يقول (نزار قباني)، والبحر

من بعيد يشبه واديًا من الجبال السوداء الشامخة التي لم يرها بشر قبلي..
درت ببطء حول نفسي، فقط لأتأكد من أن أحدًا لم يتبعني، وهنا حدث الشيء الذي يحدث دائمًا للأبواب ذات كالون (اللاتش) في الأجواء العاصفة..
انغلق باب الشاليه وتركني بالخارج!

❋ ❋ ❋

والباب الموصد في قلبي.
يتحدى فرسان الغازي..

❋ ❋ ❋

وقفت بضع ثوان عاجزة عن اتخاذ قرار.. إن التعقل لا جدوى منه.. الهلع هو الحل الوحيد إذن..

كنت أرتجف كورقة، لكنني أقنعت نفسي بأن البرد هو السبب، وببطء - شاهرة السكين - رحت أدور حول المكان..

لم يكن الظلام دامسًا، فثمة مصباح صغير واهٍ عند مدخل الشاليه، وعلى ضوئه استطعت أن أرى النافذة المفتوحة التي راح شيشها يهتز مع الريح في إصرار غريب...

دنوت، أكثر، وقلت لنفسي:

- «لو كان المتسلل، كلبًا أو قطًا، لأمكنني أن أطمئن.. سأثب إلى الغرفة وأفتحها من الداخل.. وهكذا تنتهي المشكلة..»

لكنّ ما رأيته على الرمال لم يكن مريحًا..
في البدء كانت آثار جر كأنما جسد ثقيل يزحف أو يجر فوق الرمال المبتلة.. ثم تتحول الآثار إلى قدمين حافيتين غاصتا في الرمال غوصًا، وأخيرًا تتوقف الآثار أسفل النافذة..
هل أدخل؟

❋ ❋ ❋

لا بد أنني وقفت في البرد والعاصفة أكثر من نصف ساعة..
لكنني كنت أرتجف لسبب آخر...
الغريق بوجهه المنتفخ، ولسانه البارز... كنت أراه يزحف في بطء، خارجًا من

البحر، يجر جسده بصعوبة.. لكن بإصرار، عازمًا على أن يقضي ليلته تحت سقفي، لا يفصلني عنه سوى باب يملك هو وحده مفتاحه! كنت أراه رأي العين الآن....

في النهاية - وبعد وقت طويل ـ لمت نفسي على جبني، واتجهت إلى النافذة، وقد قررت أن أثب إلى الداخل: وليكن ما يكون.. أمامي حلان: إما أن أبقى حيث أنا للأبد وأتجمد، وإما أن أجرب حظي بالداخل..

استجمعت قواي، ووثبت إلى الداخل، حيث الظلام الدامس..

مرت لحظة لم أدر ما هي، ثم وجدت يدًا مبتلة قاسية تمسك بمعصمي الذي يحمل

السكين.. بإصرار وغلظة..
هنا صرخت.. صرخت.. صرخت..

* * *

وحين استعدت وعيي كنت جالسة في غرفتنا أرتجف.. وكان (هشام) واقفًا أمامي يجفف شعره المبتلة بمنشفة..
قال لي دون أن أفهم تمامًا ما يقول:
- «حمقاء أنت حقًّا! كدت تفتكين بي بهذا السكين.. إن للخلاف حدودًا!»
- «أنت.. أنت.. كيف جئت؟»
هزّ رأسه في لا مبالاة:
- «لم أذهب قط.. لم أجد مكانًا أمضي فيه ليلتي، فدرت حول الشاليه وفتحت نافذة

الغرفة المغلقة، ودخلتها.. منعني كبريائي من أن أعود كي أستسمحك للبيات!»

- «و.. وآثار الأقدام.. والبلل؟»

- «لقد حاولت أن أجرب السباحة ليلًا.. لكني وجدت الأمر أكبر مني... توغلت في الماء حتى خصري، ثم عدلت عن ذلك، وعدت إلى الشاليه وقد انقطعت أنفاسي..»

- «و.. والمفتاح؟»

- «وجدت نسخة منه داخل الغرفة، وأولجتها في الكالون لأتأكد من أنها صالحة له.. وكنت على وشك الخروج إليك لولا أن وجدتك تثبين لي من النافذة حاملة سكينًا!»

ساد الصمت، إلا من أنفاسنا، ومن هدير الموج..

أخيرًا سألته:

- «هل جننت حتى تنزل البحر في ساعة كهذه؟»

- «لا أدري.. لقد كان النداء أقوى مني، وشعرت بأن الأمر سهل جدًّا هين جدًا.. للحظة حسبت أنني قادر على قهر البحر ذاته..»

وبخجل ابتسم، وأضاف:

- «لا أدري.. لكنني أحسب أن (الحَطَمَة) نادتني!»

قلت له وأنا أنزع معطفي الذي صار باردًا كالرصاص:

- «إن لي مطلبًا واحدًا لا مجال لك كي ترفضه..»

- «وما هو؟»

- «أن نعود إلى (القاهرة) غدًا!»

* * *

فيما بعد ازدادت علاقتنا سوءًا، وتم الطلاق بعد أربعة أشهر..

إن (هشام) رجل، ولهذا كان يحمل كل عيوب الرجال ومنها الغرور، الذي يدفع رجلًا للسباحة في البحر عند منتصف الليل في الشتاء..

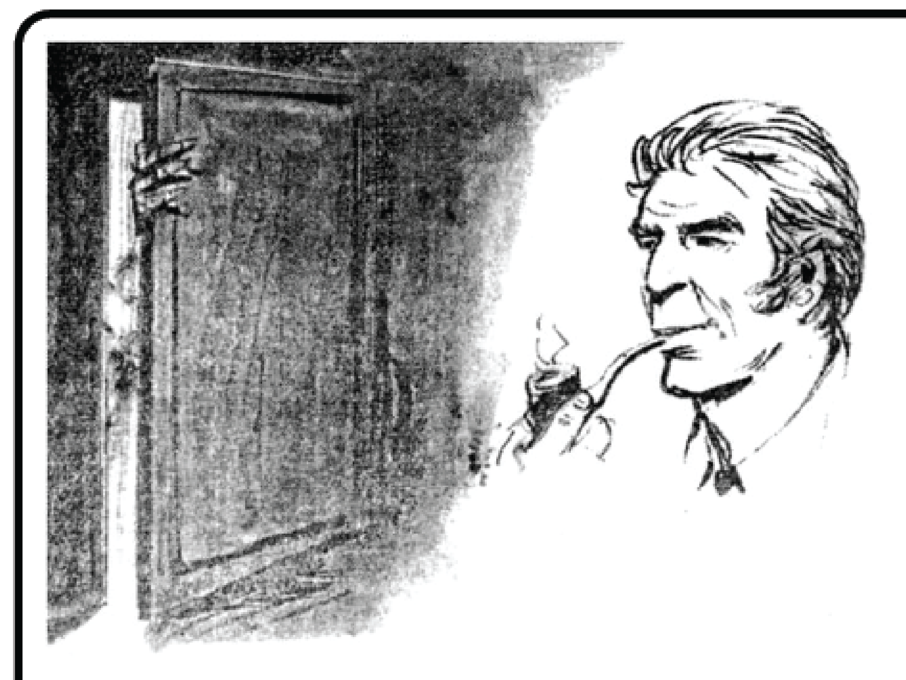
هل حقًّا نادته (الحَطمة)؟ حتى اللحظة الأخيرة كان مصرًّا على هذا، أمّا أنا فكنت مصرة على أنه مجنون..

لكن خلف الأبواب المغلقة قد يرى المرء ويسمع أي شيء..

ربما ـ لهذا ـ أستطيع أن أفهمه إلى حدٍ ما!

❋ ❋ ❋

الباب الثالث:
جريمة شبه كاملة



الباب الثالث

«جريمة شبه كاملة»

يفتحه : «محمود عوني»

«كان يلهث بحق.. مُرهقًا بحق.. لكنّ جسده لم يكن هو الذي يؤدي كل هذا العمل الشاق.. كان عقله هو الذي يعمل ويأمر..»

- ١ -

انتهت قصة (نادية)، فابتسمت مدام (ناهد) بوجهها المرهق المتعب المجعد، والذي أظهر الماء حقيقته، وقالت:

- «حقًّا كانت تجربة رهيبة يا (نافي).. ومن الحظ الحسن أنك لم تجني ذعرًا..»

ارتجفت يدا الشاعرة، وهي تفتح حقيبتها بحثًا عن مرآة وقالت:

- «أنا لا أجن ذعرًا لأنني ثابتة الجنان.. الآخرون فقط يفعلون!»

نظرت في ساعتي.. كان الفجر دانيًا، ومعه يوجد احتمال لا بأس به في انتهاء

معاناتنا.. أشرت إلى الأستاذ (محمود عوني)، وقلت:

- «أعتقد أن الوقت قد حان لسماع قصتك يا سيدي..»

ابتسم بوقار، وداعب سالفه الأشعث غريب الشكل مفكرًا، ثم قال:

- «قصة عن باب مغلق؟ كنت طيلة الوقت أفكر في واحدة لكني لم أجد.. لكني أعرف قصة حدثت الشخص أعرفه.. هل هذا مسموح به؟»

- «طالما كانت شائقة..»

- «أعتقد هذا.. والآن اسمعوا لما أقول..»

* * *

قال الأستاذ (محمود عوني):

- «عرفت (إبراهيم الغنام) من فترة طويلة.. ربما منذ عام 1936.. كنت وقتها في العشرينات من عمري؛ شابًا مجنونًا بالصحافة، وكان هو من أعظم مديري التحرير الذين عرفتهم الصحافة المصرية..

ارتقى الرجل بفنه إلى درجة دانية من الكمال، وجعل من الصحف التي عمل بها معرضًا مبهرًا للخبر حين يتزاوج مع الصورة والإطار الأنيق، وأعتقد أنني لو لم أعرفه لكنت بالتأكيد في موضع آخر من عالم الصحافة..

* * *

في الآن ذاته عرفت (صبحي محجوب)، وهو من جيل (فاروق)، لكنه يختلف عنه اختلافًا بالغًا.. لقد قابلته للمرة الأولى في أحد المقاهي التي يرتادها الرعاع، لماذا ارتدتها أنا؟ ليس لأنني من الرعاع إذا خطر لكم هذا؛ ولكن لأنني صحفي.. وعليّ أن أذهب لكل مكان وأعرف شيئًا عن كل شيء..

وفي مقهى من تلك المقاهي، جلست أدون بعض الملاحظات في مفكرتي، وأعد أوراقي.. حينما سمعت من المنضدة المجاورة صوتًا ساخرًا يقول:

- «هذا هو الصحفى الحق! فلنحييه!»

نظرت مدهوشًا، لأجد رجلًا أصلع بادنًا، تلتمع صلعته بالعرق، ويتطاير اللعاب من شفتيه الغليظتين، ويرتدي بذلة مليئة ببقع الزيت لا بد أن (تحتمس الثالث) ارتداها في زفافه.. كان يدخن (الجوزة) في نهم، ولا يكف عن البصق على الأرض كي يمسح البصقة بحذائه العتيق..

لما رأى دهشتي واستعدادي للقتال، قال:

- «لا تتضايق! أنا صحفي مثلك، وأعرف الصحفي حين أراه؛ لكنّ دعني أقل لك إن الحماس لن يقودك بعيدًا.. إن هذه المهنة لا ترحم!»

هذا صحفي؟ غريب حقًّا..

بالتأكيد حين دخلت عالم الصحافة لم تكن هذه الصورة في ذهني.. إن كل شاب يدخل

عالم الصحافة لا يرى سوى صورة (التابعي) في ذهنه، وفيما بعد صارت صورة (محمد حسنين هيكل) الشبيه بلورد إنجليزي نبيل، هي الصورة التي يحلم بها الشباب.. أمّا هذا الشيء الذي يخاطبني؟

قال لي:

- «أنا (صبحي محجوب).. الماشي في الظلال، والذي يثير نفور الجميع..»

- «تشرفنا..»

سألني عن جريدتي، وعن مجال عملي، وطلب مني أن أدعوه إلى حجر آخر مع كوب شاي.. هكذا إذن! يتسول ببساطة..

سألني وهو يشفط الشاي في هيام:

- «هل تعرف الكلب (إبراهيم الغنام)؟ لا بد أنك معجب به..»

تحفزت في عصبية:
- «أنا لا أسمح لك بـ.....»
ضحك في مرارة كاشفًا عن أسنان تساقط أكثرها، وما بقي منها لم يعد جميلًا، وقال:
- «دعك من حماس الشباب الأحمق هذا.. هذا الرجل هو ببساطة أقذر لص عرفته المهنة، وهو مصاص دماء يعيش على جهود الآخرين وعرقهم وربما دمائهم..»
وفي اللحظات التالية، حكى لي بالتفصيل ما لم أعلمه قط عن الرجل...
لقد بدأ الرجلان بداية واحدة، لكنّ ما لم أعلمه عن (الغنام) هو أنه كان مستعدًا لكل شيء وأي شيء، وكان يسرق أفكار صديق عمره ببساطة وينسبها لنفسه، ويدس له عند كل الجهات بما فيها البوليس

السياسي نفسه، وهكذا بدأ (الغنام) يصعد السلم بسرعة، ومع كلّ مرّة يصعدها كان (صبحي) يهوي درجة أو درجتين..

ثم ارتكب (صبحي) خطأ عمره: تزوج، وهكذا هبط درجة في السلم الاجتماعي، ثم أنجب وهكذا هبط درجة أخرى.. وهكذا حدث له بالضبط ما توقعه فيلسوف الانفجار السكاني (مالتوس)..

لا يدري (صبحي) متى ولا كيف وصل لهذه النتيجة.. صديق شبابه مدير تحرير لامع يتهافت الشباب لسماع حرف منه، بينما هو - (صبحي) - قد صار رائد مقاهٍ، يُطرد دائمًا من أي مكان يتواجد فيه أكثر من عشر دقائق..

وجاء العرض من (الغنام) تحت ستار مساعدة صديق في مأزق..

سيعمل (صبحي) معه، ولن يظهر في الصورة أبدًا.. فقط سيستمد منه الأفكار الجيدة الجديدة - وما أكثرها عند (صبحي محجوب) - ويقدمها للناس باعتبارها من أفكاره هو.. والمقابل؟ طبعًا بضعة ملاليم لا تشبع ولا تغني من جوع، لكنّها على الأقل تُبقي أطفاله أحياء..

الآن صارت لدى (إبراهيم الغنام) مؤسسة كاملة من الصحفيين الشبان المتحمسين، وثلاثة من المترجمين الشيوخ ثقيلى الوزن، وصحفي عجوز هو (صبحي)، وكان كل هؤلاء يعملون ليل نهار مقابل ملاليم أو كلمة مديح بسيطة.. وفي النهاية

تخرج الجريدة أو المجلة في أبهى صورة ممكنة تحمل للقارئ نبأ أن (مدير التحرير) هو (إبراهيم الغنام)؛ ومن النادر أن يلاحظ رجل الشارع اسم مخرج الفيلم السينمائي أو مدير تحرير الجريدة.. لكنّ القاعدة تتحطم مع مخرجين مثل (هتشكوك) أو (يوسف شاهين) أو (فيلليني)، ومع مدير تحرير مثل (إبراهيم الغنام)..

كان (صبحي) يكره الرجل بحق.. يحقد عليه بحق.. يحتاج إليه بحق.. يعجب به بحق...

علاقة معقدة جدًا، تحتاج إلى أديب من طراز (دستويفسكي) كي يعبر عنها بدقة..

* * *

أما ما حدث بعد هذا بشهرين؛ فأمر لم أره، لكني قرأته.. ولا أستطيع الإفصاح عن مصدر قراءتي له قبل أن أكمل القصة..

* * *

كان (صبحي) يغلي حقدًا كما قلنا؛ وكان في ذهنه يضع الخُطة تلو الخُطة للانتقام؛ حين اتصل به (إبراهيم الغنام) من (الإسكندرية) يطلب منه أن يوافيه هناك..

كانت المكالمة في المقهى بالطبع لأن (الغنام) يعرف بالضبط أين وكيف يجد فريسته، وجاء القهوجي الشاحب (سنقر) يخبره بأن هناك من يريده على الهاتف..

رفع السماعة في توجس، فسمع (العام) يصيح في مرح:

- «هذا أنت أيها العجوز! لم لا تنس أعباءك وتجيء إلى (الإسكندرية) بعض الوقت؟»

- «ليس معي ما يكفي لنسيان الأعباء كما تعلم..»

- «لا عليك.. الجيب سداد.. إنني بحاجة إليك في بعض أمور مهمّة.. إن رأيك لم يعد الاستغناء عنه ممكنًا..»

وكانت هذه هي البداية لموقف اعتاده (صبحي) وعرفه جيدًا.. عملية اعتصار الأفكار النهمة من صديقه القديم المتظاهر بالمودة..

وهكذا ذهب إلى بيته المتهالك الضيق، فقال لامرأته التي عصبت رأسها (علامة النكد الأزلي) إنّه سيقضي يومًا أو يومين في (الإسكندرية) وركل الطفل الذي ركل أخاه الأصغر، ثم اتجه إلى الباب دون أن يضيف كلمة واحدة..

*   *   *

جلس في القطار يجفف العرق المحتشد على جبينه..

كان الألم حادًا ضاغطًا عاصرًا.. وكان يعرف إلى حدٍ ما ما يعنيه هذا الشعور الممض خلف عظمة القص..

هي ذي سنوات من الفقر والإحباط والغضب المكبوت، تجتمع كلها في شرايين التاجية لتسدها..
ها هو ذا القلب الذي لم يذقِ لحظة سعادة واحدة، يحتج في صمت أولًا، ثم يصرخ ثانية.....
ها هو ذا ينذره بالصمت للأبد..
وعندما تجاوز القطار (دمنهور)؛ كانت النوبة قد انتهت، لكنّها أسلمته إلى إعياء شديد، لم يفق منه إلا حين شمّ رائحة محطة (الإسكندرية) المميزة..
كان (إبراهيم الغنام) يملك شيئًا هو ما بين (الشاليه) و(الفيللا) في (العجمي)، وفي ذلك الوقت كان (العجمي) شاطئا شبه مغلق ترتاده الصفوة، ويهابه العامة بشدة..

ولم يكن الوقت وقت اصطياف، لذا لم يندهش (صبحي) لكل الفراغ الذي قابله به الشاطئ المظلم..

أخيرا وجد الشاليه / الفيللا، ولم يكن المدخل مغلقًا، لذا انساب إلى الداخل، وقرع الباب حتى فتحه (إبراهيم الغنام)..

ولم يكن هذا الأخير مسرورًا جدًّا..

❋ ❋ ❋

- ٢ -

قال (محمود عوني):

- «لم يكن (الغنام) بادي السرور بهذه الزيارة، لكنه رحب بصديقه القديم، ودعاه إلى الداخل.. قال شيئًا ما عن أنه كان يتوقع قدوم (صبحي) نهارًا.. لم يتوقع كل هذا الحماس المبالغ فيه..

في النهاية اضطر إلى القبول بالأمر الواقع، ودعاه ليجلس..

كان يرتدي منامة حريريّة، مما يدل على أنه استعد لدخول الفراش، وكانت هناك منضدة عليها لفافة ورقية مفتوحة بها كائن أسود عذب الرائحة، يسمّونه (كباب)..

وكانت هناك سلّة أنيقة بها بعض التفاح طوح بواحدة منه إلى (صبحي)، ولم يناوله السكين بالطبع..

جلس في أريكة مريحة، وقال:

- «الموضوع - ببساطة - هو مجلة جديدة يريدون أن يعهدوا لي بأن أكون مديرًا لتحريرها، والأمر ليس بالسهولة التي يبدو عليها، لأنني مكلف بوضع تصوّر لكل شيء.. كل شيء بدءًا بشكل الغلاف وانتهاء بمن يكتب ومن لا يكتب.. والمطلوب ألا يشبه هذا العمل أي عمل سابق..»

ثم مد يده في جيب منامته، وأخرج مظروفًا صغيرًا:

- «هاك! خذ!»

وطوح به في الهواء، لكنّ (صبحي) لم يكن ممن يجيدون لعب التنس، وارتطم المظروف بكتفه ليسقط أرضًا..

قال (الغنام) وهو يعود لاسترخاء جلسته:

- «هذه أتعاب مقدمة.. وينتظرك مظروف مماثل بعد الانتهاء من كل شيء.. من المفروغ منه أننا لن نعود إلى (القاهرة) إلا بعد ما نضع تصورًا شاملًا محكمًا لكل شيء..»

وأشار لرأسه بسبابته:

- «نريد بعض (المخمخة) إذن..»

قضم (صبحي) نصف التفاحة مرة واحدة..

وراح يلوكها بصعوبة بأسنانه المنهكة، وتساءل:

- «هل لهذا جئت هاهنا؟»

وكان يعرف الإجابة.. بالطبع ليس لهذا فقط.. لكن (إبراهيم الغنام) قال في جديّة:

- «بالطبع.. لقد فررت من كل أعبائي.. لا أحد يعرف أنني هنا، ولسوف تنقلب (القاهرة) رأسًا على عقب بحثًا عني؛ لكنهم لن يفكروا في هذا الشاليه.. إنني متفرغ للتفكير العميييييق..»

لم يكن (الغنام) متزوجًا.. ربما تزوج مرة وطلق، ولشد ما حسده (صبحي) على هذا.. لهذا يحتفظ بنضارته وخلوه من الهموم.. صحيح أن المرء يتزوج، كي لا يكون وحيدًا في شيخوخته، لكنّ (الغنام) لن يكون وحيدًا أبدًا.. سيجد دومًا من يهتم به، ويقدم له ملعقة كبيرة من شراب السعال

حين يتعالى سعاله ليلًا.. حتى لو ابتاع هذه الخدمات بماله..

قال (صبحي) وهو يُلقي ما تبقى من التفاحة في فمه:

- «معذرة.. لكني لا أستطيع التفكير بمثانة مليئة..»

- «هذا حقك البشري.. (التواليت) على يسارك عند نهاية السلم..»

ونهض (صبحي) متثاقلًا.. فوجد درجًا خشبيًا ينزل لأسفل إلى ما يشبه القبو..

كان الحمام كما وصفه الرجل.. وكالعادة كان عطرًا فاخرًا به مرآة هائلة الحجم، تراصت على رفها زجاجات من العطور و(اللوسيون) تفوق ما في أي متجر كبير..

غسل (صبحي) وجهة المبتل بالعرق من وعثاء السفر، ورش عطرًا ما من زجاجة تحت إبطيه..
بدأ ينتعش، وأضافت المثانة الفارغة انتعاشًا إلى انتعاشه، فغادر الحمام، عازمًا على العودة إلى جلاده..
هنا رأى الغرفة المفتوحة أمام الحمام..

* * *

كانت الجدران عارية تمامًا إلا من القرميد، ومن السقف تدلى مصباح متهالك.. أضاءه فوجد أن الغرفة أقرب إلى حمام آخر تحت الإنشاء.. بها صنبور ماء

يتدلى من ماسورة عارية، وبها فتحتا صرف في الأرضية..

كانت هناك شكائر من الأسمنت مكدسة في الركن، وعدة صفوف متراصة من القرميد... كما كانت هناك أدوات بناء: رفش وتلك الأداة التي يستخدمها البناءون في وضع الأسمنت.. وكانت هناك كمية لا بأس بها من علب تحوي بلاطا قيشانيا ـ قبل عصر السيراميك طبعًا ـ وكل ما يوحي بأن هذه الغرفة ستتحول إلى شيء آخر، ما إن يسمح الوقت بذلك.. هذه الغرفة بدورها توحي بشيء ما لا يدري كنهه..

تأمل المكان في اهتمام، ثم غادره بعد ما أطفأ النور...

كان الباب مواربًا، لذا تركه كما رآه، وصعد في الدرج إلى حيث كان (إبراهيم الغنام) يفرز محتويات ملف كبير..

- «شفيتم!»

قالها باسمًا في سخرية، ثم دعاه إلى الجلوس بجواره...

- «أريدك أن تدرس هذه الأوراق.. كن حرًا تمامًا في التعديل أو الحذف..».

هنا رفع (صبحي) وجهه في تحد، وقال:

- «ومن قال إنني قبلت؟»

بهت (الغنام) قليلًا، ثم هتف:

- «لقد تقاضيت أتعابك!»

- «لم أمس المظروف.. أعتقد أنه في موضعه على الأرض لو لم أكن مخطئًا..

وعلى كل حال أنت لم تناولني شيئًا في يدي، بل ألقيته في وجهي إلقاء»

وضع (الغنام) الملف جانبًا، وقال بتؤدة:

- «(صبحي).. أنت لا تملك الرفض.. أنا بحاجة إليك، وليس من المعتاد أن أكرر هذا مرّتين..»

- «وأنا مصر على الرفض..»

- «والأسباب؟»

ابتسم (صبحي) في مرارة، ونظر إلى حيث كان المظروف:

- «كم في هذا المظروف؟»

- «خمسون جنيهًا.. لماذا تسأل؟»

- «لأنني سئمت الاستسلام.. لقد استسلمت لك مرارًا، وصنعت نجاحك، لكنّ المكافأة في كلّ مرّة كانت بضعة

ملاليم.. حتى الكلاب قد تعض صاحبها إذا ما بالغ في إساءة معاملتها..»

- «خمسون جنيهًا؟! يا لك من جشع! إن طيبة قلبي مع صديق قديم تدفعني إلى إذلال نفسي دون مبرر.. أنت لم ترَ هذا المبلغ، وفي الغالب لن تراه أبدًا.. هل تعرف السبب؟»

- «إنني أتحرق شوقًا لمعرفته..»

اشتعل الغضب نارًا في عيني (الغنام) وصاح:

- «لأنك أحمق! لأنك بلا مواهب ولا قدرات.. إن الحياة تحسن اختيار من تهبه ثمراتها... فقط الموهوب والذكي والبارع ينالون كل شيء، بينما أمثالك ينحدرون.. ينحدرون.. ولا يكفون عن الشكوى من

الظلم الفادح الذي يلقونه.. لقد استحقوا ما حدث لهم، ولا ظلم هناك.. دعهم ينعموا بلذة الشعور بالاضطهاد.. دعهم يمارسوا (البارانويا) على أوسع نطاق.. إنهم يستحقون كل شيء لأنّهم حشرات.. وأنت مجرد حشرة لا يجب أن نتملقها أكثر من اللازم كي لا تلدغنا!»

وأخذ شهيقًا عميقًا كي يواصل الهجوم:

- «(صبحي محجوب).. إنني أخفض عرضي إلى ثلاثين جنيهًا.. وأعرف أنك ستقبلها مهما تعاليت.. لماذا؟ لأنك بحاجة إليها.. لأن أطفالك جياع، ولأن أباهم جاهل معدوم الموهبة.. ولأن.....»

لم يكمل العبارة التالية، لأن (صبحي) غرس السكين في صدره حتى المقبض..

* * *

الآن صار المشهد دراميًا بحق..

يقف (صبحي) ذاهلًا يرمق الرجل الأنيق الممدد على الأرض، ينزف دمًا من صدره بلا انقطاع..

لم يحتج إلى أن ينحني ليتحسس صدر (إبراهيم) أو نبض معصمه.. فالموت شيء يمكن معرفته بالسليقة..

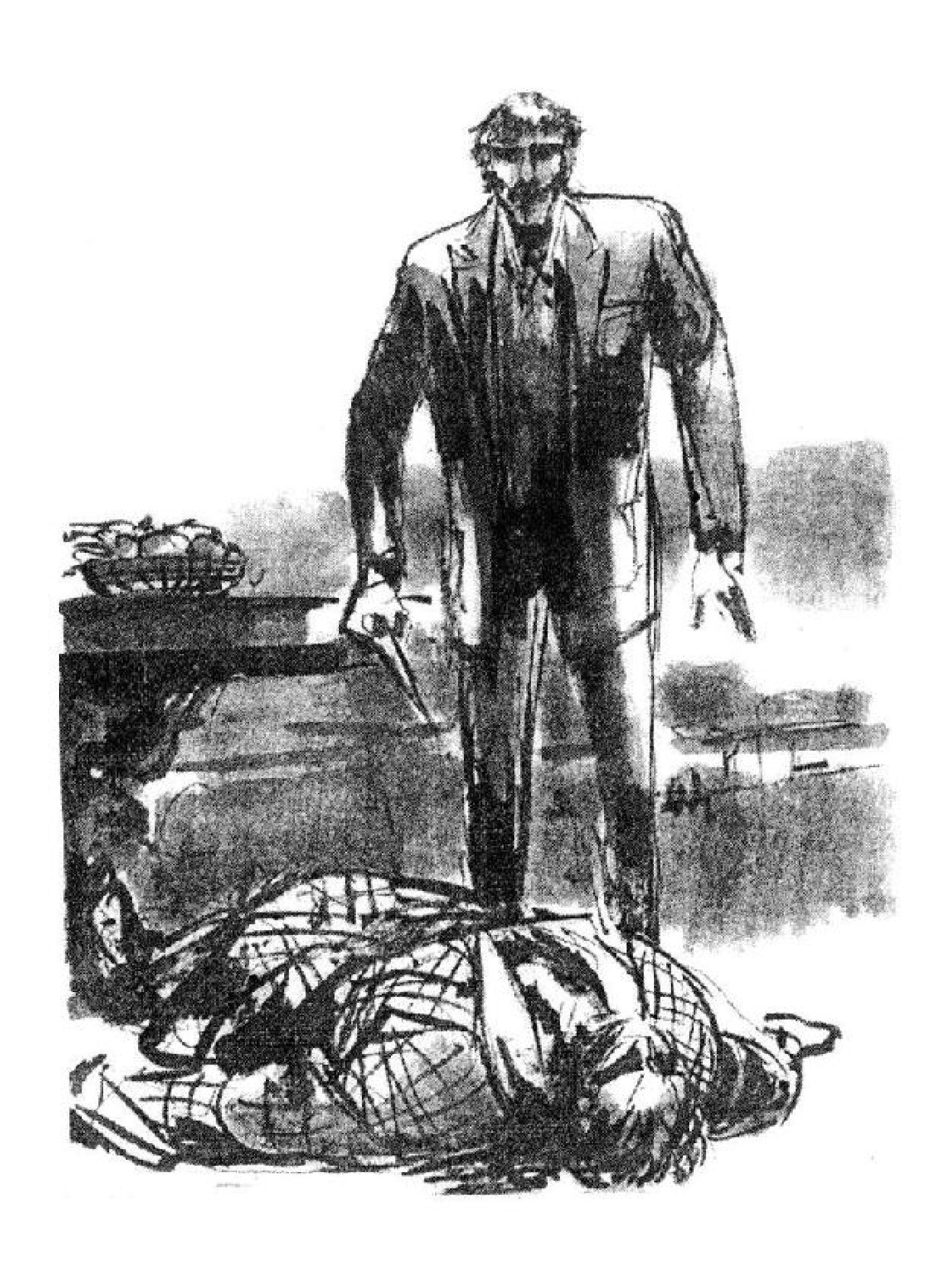
ومن الغريب أنه لم يفقد ترتيب ذهنه.. لقد أثار الرجل أعصابه إلى حد غير مسبوق، وصارحه بكل ما كان كلاهما يعرفه.. لكنه يداريه خلف قناع الحضارة والتهذيب..

الآن صار الموقف تجريديًا تمامًا.. مشادة انتهت بضربة سكين كما يحدث في مقهى (شيحة)، لا في بيت مدير تحرير كبير..

يمكنه الفرار.. لا أحد يعرف أنه هنا..

لكنه كان ذكيًا بما يكفي.. لا بد من بصمة هنا أو هناك.. لقد ترك دون تحرز بصماته في كل مكان، ويحتاج إلى عشر سنوات كي ينظفها جميعًا، هذا طبعًا بعد أن يحصل على دكتوراة في العلوم الجنائية..

في قرارة نفسه لم يكن نادمًا إلى هذا الحد.. لم يكن ندمه أكثر من ندمه بعد قتل فأر تسلل إلى المطبخ.. ربما الاشمئزاز هو الشعور الطاغي الآن..



وهكذا تركز فكره في الوسيلة الوحيدة للخروج من المأزق: إدفن أخطاءك.. الوسيلة التي توصل إليها (قابيل) وهو يتأمل جثة أخيه (هابيل) لكنّ لم يكن هناك غراب هاهنا..

❋ ❋ ❋

الغرفة التي أمام الحمام...
إنها توحي بشيء ما..

❋ ❋ ❋

ولم يكن (صبحي) رياضيًا قط..

بالأحرى كان يملك جسد شيخ وقلب مومياء وعضلات طفل رضيع.. وكان داء السكري قد فتك به بشدة، مع تدخين (الجوزة) المستمر...:

لهذا لم يكن جر جثة (الغنام) عملًا شديد الإمتاع، لم يكن نزهة مريحة.. كان العرق ينساب على صلعته وتحت إبطيه، واستطاع أن يشم رائحة العطر الذي سرقه في الحمام، تفعم الجو.. إنها حقًّا رائحة (إبراهيم الغنام) المميزة، حتى كأن الرجل يملأ المكان..

هو ذا يهبط في الدرج الخشبي..

يجر الجسد جرًا إلى الغرفة التي تنتظر استكمال بنائها..

❋ ❋ ❋

لا أحد يعرف أن (الغنام) هنا..
لا أحد يجيء لهذا الشاليه..
من المعروف أن (الغنام) كثير التنقل، كثير الاختفاء، كثير السفر إلى الخارج..
لا توجد جريمة دون جثة.. لا بد من جثة قبل البحث عن قاتل..
هذه هي المعطيات، وعليه أن يستفيد منها..

❋ ❋ ❋

في كثير من العسر جر الجثة إلى الداخل.. تعلق الباب في خف إحدى

القدمين، فحرره لكنّ الباب انغلق وراءهما..
لا بأس.. إنّه بلا قفل أصلًا..
أضاء النور الواهن، واستعد كي.....
هنا أطبقت عليه يد الجثة!
هلع ونظر مذعورًا إلى ساقه، ليجد (الغنام) وقد فتح عينيه في شراسة يعتصر ساقه بيد من حديد، ويحاول أن يمسك بالساق الأخرى..
كان المشهد مريعًا أشبه بالخضات التقليدية في أفلام الرعب، حين يعود الشرير الميت للحياة فجأة قرب نهاية الفيلم.. فقط ليتضح أنه لا يموت بهذه البساطة..
ـ «اتركها يا أحمق!»

وبصعوبة مد يده إلى حيث كان الرفش.. تمكّن من القبض عليه.. رفعة عاليًا ثم هوي به مرّتين..

❋ ❋ ❋

من جديد عاد الهدوء واستتب الأمن..

عاد فؤاده إلى معدل خفقانه الطبيعي، فجلس جوار الجثة يلهث..

أخيرًا استرد قواه، فنهض...

كانت هناك قصعة فارغة ملأها بالأسمنت من جوال هناك، وجرها جرًا إلى ما تحت صنبور الماء..

الآن يجيء دور العمل الفني البارع..

جر الجثة إلى الجدار القرميدي وأراحها هناك، بحيث تحتل أقل مساحة ممكنة.. ثم مزج الأسمنت بالماء.. لو كان هناك رمل لصنع (مونة) رائعة بحق، لكنّ لا وقت للتدقيق في قواعد علم الخرسانة على كل حال...

وضع طبقة من الأسمنت على الأرض تمتد في خط بطول الجدار، ثم بدأ يرص قطع القرميد متلاصقة فوقها..

هذه هي خطّته.. لقد صنع جدارًا جديدًا يبتعد عن الجدار القديم بنصف متر.. وما بين الجدارين وجد فراغًا يصلح قبرًا دائمًا للجثة..

لن يجد أحد الجثة إلى يوم الدين.. ربما لو أزالوا الشاليه لوجدوها؛ لكنّ أحدًا لن

يلاحظ أبدًا أن طول الغرفة قد انكمش نصف متر، دون سبب واضح..

- «كل شيء ينكمش في الشتاء!»

وراقت له الدعابة، فطفق يضحك، ويواصل مهمته في الضوء الخافت المؤذي للعينين..

ستفتش الشرطة كثيرًا، وستبحث في الشاليه، لكنهم لن يجدوا ما يدل على أن (الغنام) أمضى ليلتين هنا.. هو سيزيل كل الآثار وسيأكل الكباب والتفاح ويخفي الأوراق في حقيبته..

الآن يضع صنفًا ثالثًا من القرميد، ويزيد من كمية (المونة).. لحسن الحظ أن الصنبور هنا.. كان سيحتاج لنقل الماء من الحمام وياله من جهد!

لسوف يوضع اسم (إبراهيم الغنام) في قوائم من (خرجوا ولم يعودوا)، وبعد أشهر عدة سينسى الناس من كان..

بصمات؟ لن يهتم أحد برفعها، لأنّه لا جثة هنالك.. وحيث لا توجد جثة لا توجد جريمة.. سيبدو الشالية في نهاية عمل (صبحي) كأنما لم يزره أحد منذ عام..

صف سادس من القرميد.. الجدار يعلو......

كان يلهث بحق.. مُرهقًا بحق.. لكنّ جسده لم يكن هو الذي يؤدي كل هذا العمل الشاق.. كان عقله هو الذي يعمل ويأمر..

* * *

السادسة صباحًا..

يا لها من ليلة ليلاء!

ونظر لأعلى ليجد أن الجدار قد علا تقريبًا.. حتى لامس السقف.. كانت آخر أربعة صفوف هي الأصعب، وقد احتاج إلى الصعود مرارًا على خمس شكائر من الأسمنت كدسها في شكل سلم.. رباه! لم يحسب قط أن شيكارة الأسمنت لها هذا الثقل المريع.. لا يُمكنك أن تصدق هذا ما لم تحاول جر واحدة على الأرض..

كان يدرك أنه سيمرض بشدة بعد هذا.. سيلازم الفراش شهرًا أو أكثر.. ربما.....

❋ ❋ ❋

هنا بدأ الألم..

لم يكن تدريجيًا كما اعتاده، بل هو ألم مفاجئ صارم قاهر يتحين الفرصة في نهم.. وقد اعتاد هذا الألم وعرف مصدره جيدًا..

وأصابه الذعر وترك ما يقوم به..

كلا.. لن يموت هنا.. لن يموت بهذه البساطة.. عليه أن يهدأ قليلًا.. لكنّ محاولة الهدوء كانت تحتاج منه إلى جهد يزيد العناء على قلبه.. ما كان لهذا القلب أن يتحمل كل هذا الانفعال والجهد العضلي..

شهق في جزع.. عليه أن يغادر هذا الحمام الخانق.. عليه أن...

مترنحًا هرع إلى الباب الموصد، فقط ليكتشف المفاجأة غير السارة على

الإطلاق.. الباب بلا مقبض طبعًا.. لكنه يحوي (الكالون) الداخلي، وله لسان قد برز الآن ليدخل في ثقبه..

يحتاج إلى مقبض.. يحتاج إلى جسم معدني مضلّع يدسة في الثقب ليدير به اللسان.. لكنّ كيف يجده والألم يزداد، والهواء أكثر ندرة من.. من (اليورانيوم)من الـ.....؟

دق الباب مرّتين أو ثلاثًا..

تحول الصراخ إلى عواء طويل كعواء ذئب جريح..

ثم لا شيء..

ظلام مطبق..

* * *

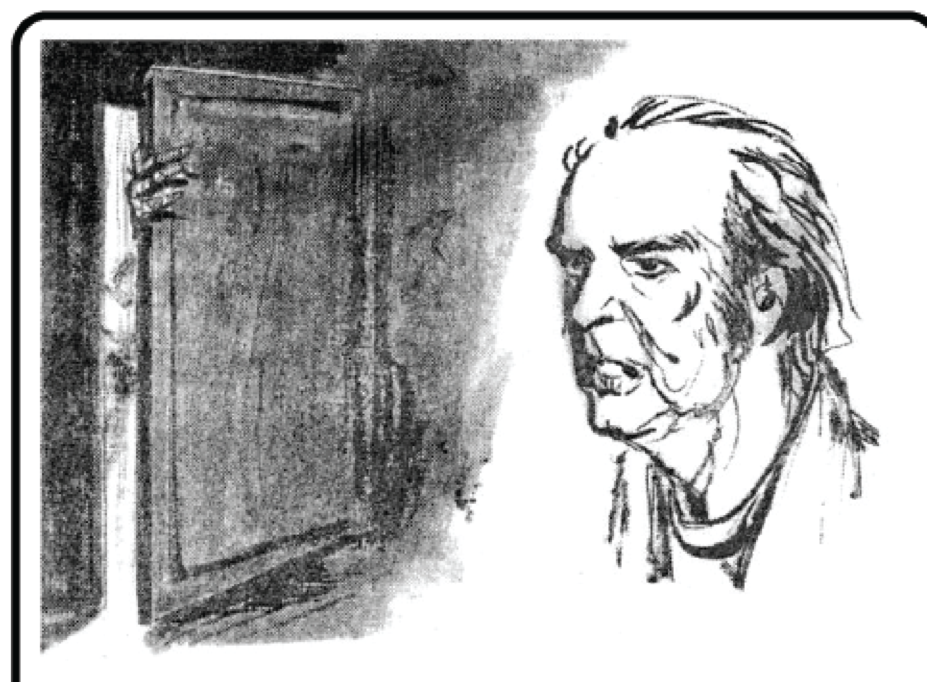
بعد ثلاثة أشهر فتح رجال الشرطة الشاليه / الفيللا، فوجدوا أشياء غريبة جدًا..
وجدوا جثة - تحولت إلى عظام الآن - خلف جدار نصف مكتمل.. ووجدوا هيكلًا عظميًا يحاول الزحف إلى باب بلا مقبض..
وكان هناك شيئان آخران لهما أهميّة خاصة:
الأول هو جهاز تسجيل أداره (إبراهيم الغنام) منذ جاءه (صبحي)، وكان يزمع تسجيل كل تفاصيل المحادثة لتفريغه فيما بعد، وتنسيق أفكاره، وهو ما لم يخطر ببال (صبحي) قط، ولم ير الجهاز أصلًا..

الثاني هو مقبض باب ـ نصف مقبض إن صح التعبير ـ وجدوه مختلطًا بأسمنت جافة في قصعة..

وتساءلوا: من الأحمق الذي يخلط مقبض باب بالأسمنت؟ وما هو الغرض؟

❋ ❋ ❋

الباب الرابع:
كلاكيت!



الباب الرابع

« كلاكيت! »

يفتحه : « حسين أبو النجا »

« ملامح الرجل غريبة حقًا.. عيناه جاحظتان مليئتان بالذعر.. شعره منتصب كأشواك قنفذ، وها هو ذا يضع كفيه على جانبي رأسه ويصرخ.. طبعًا صرخة صامتة لم يسمعها أحد.. »

- ١ -

قلت لـ (محمود عوني) بعد ما انتهت قصته:

- «إذن كانت القصة هكذا! إنني سمعت تفاصيل القصة حين حدثت في زمنها، لكني لم أعلق عليها أهميّة كبرى، ولم أعش فيها كما أعيش الآن.. إذن كان مقبض الباب في قصعة الأسمنت من البداية!»

ابتسم في وقار، وقال:

- «طبعًا.. لكنّ من المبالغة أن يقول إن هذا كان سينقذ (صبحي)، فالمكان ناء والمجهود كان عنيفًا..

ثمة عدالة شعرية فيما حدث، وإن كنت أكذب لو زعمت أنني مسرور بهذه النهاية..»

قالت مدام (ناهد) وهي تضع بعض الشطائر أمامنا، كانت قد جلبتها من المطبخ:

- «لقد تعاطفت مع (صبحي) أكثر من (إبراهيم الغنام)، ولعلى شريرة في هذا التعاطف..»

قال المخرج العجوز، وهو يمد يده إلى شطيرة:

- «هذا لأن القصة كلها من وجهة نظر (صبحي)، وهذا يجعلك تعيشين تجربته، وتتبنين قضيته على الفور مهما كانت خاطئة.. هذا يحدث كثيرًا في السينما حين

يجعلك السيناريو تتبنين قضية لص أو قاتل، وهو خطأ أخلاقي، لكنّ النهاية تبرره.. وثمة قاعدة قديمة في (هوليود) تقول: دع المشاهد يعشق الأخطاء ثلاثة أرباع الفيلم؛ إذا كنت تنوي جعله يمقتها في الربع الأخير.. ولو كانت القصة من وجهة نظر (الغنام) لكان تعاطفنا في اتجاه مختلف تمامًا..»

ساد الصمت برهة، ثم قلت بفم مليء:

ـ «الباب الأول كان يخفي سرًا جهنميًا لملحن شهير.. الباب الثاني كان يداري غريقًا اتضح أنه ليس كذلك.. الباب الثالث أفسد جريمة شبه كاملة.. ترى ماذا ينتظرنا خلف الباب الرابع؟!»

ونظرت إلى المخرج العجوز (حسين أبو النجا)، وقلت:

- «هذا دورك يا سيدي..»

في عصبية قال:

- «حان أوان ذلك.. ظننتكم ستتجاهلون قصتي للأبد..»

- «بل نحن نبقي الحلوى لنهاية الوجبة...»

قلتها مداهنًا متملقًا.. فلا أرغب في إثارة غضبه في ليلة كهذه..

* * *

قال المخرج الكبير (حسين أبو النجا):

ـ «كنت في ذلك الحين متعاقدًا مع المنتج الكبير (....) لتصوير آخر أفلامي (فاجعة فوق السطح)؛ مع النجمة الشهيرة (حسناء) والأستاذ (عمر عزت).. من المعروف عني أنني من المخرجين سريعي الإنجاز، وأن فترة ثلاثة أسابيع كافية جدًّا لتصوير أطول فيلم لي، كما أنني أتحرك في حدود الميزانية المقررة لا أتجاوزها..»

يتهمني النقاد بضيق الأفق والسطحية.. لكنني - ببساطة - رجل فهم الجمهور، وعرف ما يتوقعون منه، ويمكنني إنجاز أي فيلم بخلطة سرية أعرفها وحدي.. بعض الجريمة.. بعض الحب.. بطلة حسناء.. رقصة شرقية.. عصابة ما.. النهاية السعيدة والزواج.. من يتزوج من؟

البطل والبطلة طبعًا مهما تباينت شخصيتاهما..
حقًّا لن يفوز فيلم من افلامي في مهرجان (برلين)، ولن يظل في دور العرض عامًا كاملًا، لكنه يحقق هامش ربح لا بأس به للمنتج، والسينما صناعة قبل أن تكون فنًا..
إنني أضمن سرعة دوران رأس المال، وهكذا يمكننا صنع فيلم ثان فثالث، كلها تكفل الحياة الرغدة لي ولأطفالي، وللمنتج والممثل.. والمونتير.. ولم يترك مشاهد دار السينما شاعرًا أنه قد خدع.. لقد حصل على كل شيء.. وبـ (الكيلو)..
من يشكو إذن سوى النقاد المعقدين منكوشي الشعر كثيري التدخين؟

* * *

- «أكشن!»

قلتها بلهجتي الآمرة الممطوطة التي أعشقها، وهكذا هرع صبي الـ (كلاكيت) المصاب بالأنيميا يتلو أمام العدسة رقم اللقطة، وعدد مرات تصويرها، ثم نزع اللوحة وانسحب..

هدير الكاميرا العالي.. الأضواء الباهرة.. الديكور.. الممثلون..

رباه! من يزعم بعد هذا أننا نقدم هراء؟!

إن كل هذا يكلّف مالًا.. لكنه رائع ولا يُصدق..

ودنا البطل من البطلة ليلقى العبارات التي حفظها من (السيناريو)..

طبعًا لا داعي للقول إنّه حفظ هذه العبارات من ربع ساعة لا أكثر، ورآها لأول مرة في حياته من ثلث ساعة.. لا وقت لديَّ ولا لديه لجلسات الاستماع ومناقشة السيناريو وكل هذا الهراء.. لسنا في (ستوديو الممثل الشهير في (هوليوود) حيث يكون على الممثل أن يفكر ويحلم ويتنفس كبطل الفيلم، دون أن يكف عن أن يظل هو.. هؤلاء القوم لديهم الوقت والمال، أمّا هنا فأنا بحاجة لبطل يجيد اصطناع أربعة أنماط من العواطف: الغضب - القلق - الفرحة - الهيام.. هذا كاف جدًا..

البطلة تعطيه ظهرها وتواجه الكاميرا (هذا هو الميزانسين المفضّل لدي مهما

سخر الساخرون)، بينما هو يكلمها في هيام:

- «(مرفت).. أنت الأمل الذي انتظرته طيلة حياتي..»

فتقول في تعال:

- «لا تقل لي هذا... قله. لـ (نادية)...»

فيبدو الألم على وجهه.. ألم سينمائي مين الذي يحرك الملامح كلها...

ثم يقول:

- «(نادية) وأنا مجرد صديقين... لم يعد بيننا ما..... إلخ..»

هنا لاحظت أن الباب في خلفيّة الكادر يتحرك... المشكلة هي أنه واضح للعيان أكثر من اللازم، وهما وحيدان كما هو مفترض.. في العادة أنا لا أدقق كثيرًا.. في

هذه الأمور، وفي أحد الأفلام دخلت البطلة غرفتها لتبكي أمام مرآتها، وحين عرض الفيلم ظهرت صورتي واضحة تمامًا في المرآة، ورآها النقاد جميعًا![2]

ماذا حدث؟ هل انطبقت: السماء على الأرض؟ هل توقفت الحياة؟ سرعان ما تمر أشياء كهذه، وينساها الناس.. لا أحد يعلق المشانق لأسباب واهية مثل هذه.. دعك من أنها أشياء تؤدي لرواج الفيلم..

ولرب من يدخل السينما فقط ليرى صورتي في مرآة البطلة، ويضحك!

- «ستوووب!»

دوّت صيحتي الغاضبة.. فهذه المرّة لم يكن من السهل أن أتجاوز عن هذا.. وما

أحنقني هو أنني لا أصور اللقطة مرّتين إلا فيما ندر..

وصحت في عمال الاستديو المذعورين:

- «من الذي يحرك هذا الباب؟»

- «لا أحد يا سيدي.. لا أحد..»

وهرع أحد فنيي الكهرباء نحو الباب وفتحه.. لم يكن وراءه شيء سوى ستار مفرود من الكتان.. إنّه ديكور مسطح ذو بعدين كل ديكورات السينما، ومن غير الوارد أن يتوارى أحد وراءه..

- «إذن تأكدوا من غلقه كي لا ينفتح..»

ولم يكن الباب مزودًا بقفل أو مزلاج، لذا تفتق ذهن أحدهم عن جلب قطعة قرميد ووضعها تحت الباب، حيث تظل بعيدة عن مجال العدسة، وتمنع الباب من الاهتزاز...

كان البطل قد انتهى من تدخين لفافة تبغه، والبطلة قد وضعت مساحيقها وأعادت لصق أهدابها الصناعية للمرة الألف هذا اليوم..

- «صمتًا! سنبدأ!»

ومن جديد جلست في مقعدي، وأطلقت صيحة البدء.. فالكلاكيت، ثم راحت آلة التصوير تهدر، و...

- «(مرفت).. أنت الأمل الذي انتظرته طيلة حياتي..»

- «لا تقل لي هذا.. قله لـ (نادية)..»

- «(نادية) وأنا مجرد.....»

هذه المرّة تحرك الباب بعنف أكثر، وتعالى الصرير مع صوت قطعة القرميد إذ تحتك بالأرضية..

وتبادلنا النظرات مشدوهين.....

❋ ❋ ❋



- ٢ -

قال المخرج العبقري (أبو النجا):

- «لكم أن تتصوروا غضبي وضيقي من هذا السخف.. نهضت بنفسي إلى الباب وتفحصته.. كان ثقيلًا إلى حدٍ ما، وقد ساعد قالب القرميد في جعل عملية فتحه جهدًا إيجابيًا، لا يمكن أن يتم بفعل الهواء..»

هنا قاطعته سائلًا:

- «لحظة.. تقول إن وراء الباب ستار قماشي.. فماذا وراء الستار؟»

هزّ رأسه، وقال:

- «لا شيء.. مجرد فرجة تقود إلى جدار.. وكان ما خطر لي هو أن أحدهم يتسلل إلى ما وراء الستار ليدفع الباب من خلاله...»

- «من هو؟»

ابتسم في تهكم، وقال:

««كثيرون... كل الناس تملك حقدًا معينًا على العاملين في مهنة السينما، وتتمنى إفسادها.. قد يصرخ أحدهم انبهارًا حين يرى نجمة سينمائية حسناء، لكنه في قرارة نفسه يمقتها ويتمنى لها الفشل.. وكل سينمائي حاول أن يصور فيلمًا في شوارع (القاهرة)؛ يعرف جيدًا كيف يحاول الناس جاهدين أن يفسدوا ما يقوم به دونما سبب واضح..»

- «وهل وجدت رجلك الحاقد هذا؟»
- «لا.. طبعًا..»

* * *

قمنا بتفتيش الكواليس جيدًا؛ فلم نر إلا قطة وأطفالها الرضع، وقد قام العمال بطردها بالمكنسة بلا رحمة..

ثم إننا أحكمنا غلق الباب بمسمار محوى ثبتناه من الخلف؛ وبدأنا تصوير المشهد المقيت.. لثالث مرة..

- «(مرفت).. أنت الأمل الذي انتظرته طيلة حياتي..»
- «لا تقل لي هذا.. قله لـ (نادية)..»
- «ستوووب!»

لأن الباب تحرك من جديد، وبعنف يتناسب مع الإحكام الذي قمنا بتثبيته به..
ورأيت المصور يضرب كفًا بكف، على حين راح عمال التصوير يبسملون ويحوقلون، وقد أدركوا ما أدركته أنا..
ما يحدث هنا خارق لقوانين الطبيعة..
راحت البطلة تصيح في هستيريا:
- «أوف! هذه ليست سينما.. هذا ليس عملًا! لم لا تعلمونهم كيف يصنعون الديكورات قبل أن تبلونا بهم؟!»
وكنت معتادًا على هستيريا النجمات هذه؛ وأجدت امتصاصها طيلة حياته.. حقًّا لم أكن قط من المخرجين الطغاة..
- «أعرف أنّ هذا يثير الضيق يا (مدام).. لكنّ دعينا نصور هذه اللقطة، ولسوف أجد

حلًا في أثناء تقطيع الفيلم..»
نفخت في ضيق، وهتفت من أنفها:
- «ماكياج!»
وللمرة الألف هرعت الماكييرة لتضع المساحيق على أنفها اللامع..
ومنى دنا مساعدي - وهو شاب ذكي سيصنع أفلامه الرديئة يومًا ما بالكيفية ذاتها - وهمس:
- «لقد انتزعت قوة ما المسمار المحوي من مكانه!»
- «أعرف.. فيما بعد سيكون لدينا وقت كاف لتطهير المكان بالبخور والأوراد؛ أمّا الآن فالوقت يعني مالًا..»
وبصوتي الجهوري المحبب صحت:
- «آكشاااان!»

ومن جديد هدرت آلة التصوير، والتمعت مصابيح (الآرك) بعد ما وضعنا (شارج) جديد في الآلة، وراح مكبر الصوت الصغير ينحدر من عل، ليواصل مهمته..

- «(مرفت).. أنت الأمل الذي انتظرته طيلة حياتي..»

هزت كتفها في ملل.. كان مللها ونفاذ صبرها اللذان بدأت التصوير بهما يرتفعان بأدائها إلى درجة الإعجاز:

- «لا تقل لي هذا.. قله لـ (نادية)..»

-«(نادية) وأنا مجرد......

ومن جديد انفتتح الباب.. انفتح أكثر فأكثر.. كاشفًا عن الستار القماشي... ونظر لي مساعدي في قلق، لكنني أغمضت

عيني بمعنى (لا مشكلة هناك).. دعوا الأمور كما هي..

واصل البطل حزنه، بينما الباب يواصل اهتزازه في مؤخرة الكادر:

- «(مرفت).. لو رفضت حبي سأقتل نفسي..»

ثم علا أداؤه أكثر.. وصاح:

- «سأقتل نفسي!»

تمثيل ردى جدًا أو مسطح للغاية.. لكنه يؤدي الغرض ما دام الفتى بحق وسيمًا، لا تكف مجلة (النجوم) عن نشر صورته، وتعلقها كل مراهقة حمقاء في غرفتها.. حالمة بأن يقتل نفسه من أجلها هي..

واستدار ليجري خارجًا من الكادر، على حين نظرت البطلة نحوه في شك، ثم

صاحت وقد تزعزعت ثقتها:

- ((عادل))!! ((عادل))!!»

- «ستوووب! رائع! إطبع!»

كذا صحت أنا وقد راق لي الأداء بشدة.. إنه ردئ.. لكنّ لن تجد أفضل منه مع هؤلاء الممثلين وبهذه الميزانية..

هنا انفجر مصباحان، وسمعنا صرخة البطلة في الظلام..

وساد الهرج والمرج...

❋ ❋ ❋

لم تكن الحروق في وجهها مريعة.. ستشفى سريعًا وتحتفظ بجمالها الذي هو موهبتها الوحيدة...

وقبل أن تنصرف لدارها، دعت عليّ بالعمى والشلل، ودعت على الاستوديو بالخراب، واستعملت ألفاظًا يعاقب عليها القانون، تعلمتها في أزقة أجهل عنها كل شيء.. ثم أضافت:

ـ «لقد كان يومًا أسود من بدايته.. والآن يسرني أن أنسحب من تصوير هذا الفيلم الرديء...»

لا.. لا.. كله إلا هذا...

ـ «والعقد؟ والشرط الجزائي؟»

في لهجة مسرحيّة. فخيمة صاحت:

ـ «(بله واشرب ميته)!»

وغادرت المكان، وقد حولت الضمادات وجهها إلى ما يشبه الأخ (بوريس

كارلوف) في أفلام (المومياء) التي أثارت رعبنا في شبابنا لفترة لا بأس بها..

صاح مساعد المخرج وهو يرتجف رعبًا:

- «إنّه الخراب!»

- «يا بني أنت حديث عهد بالمهنة.. لقد مررت بهذا الموقف مائة مرة، وفي كل منها كانت المياه تعود لمجاريها بمجرد أن يلمح المنتج بزيادة الأجر.. دع الأمر لي وأعد لي اللقطات التي لا تظهر فيها هذه الحدأة.. سنقوم بالبدء فيها غدًا..»

*   *   *

في الصباح يقول خفير الاستوديو أشياء غريبة حقًّا..

الرجل منهار متوتر الأعصاب، يقسم أنّ هذا الباب ظل ينفتح وينغلق طيلة الليل.. ثم إن أضواء الاستوديو المطفأة راحت تتوهج كلها مرارًا، ويقسم كذلك أنه سمع أنينًا متصلًا من وراء الباب، وفي كلّ مرّة كان يفتحه ويتحقق، ثم يدور حول الستار القماشي ليتنصت.. لكنه في كلّ مرّة لا يجد شيئًا..

ـ «الصوت يا أستاذ كان قادمًا من كل مكان ولا مكان.. كأنما الجدران ذاتها تئن!»

تأملت شاربه الغليظ ووجهه الأسمر الخشن، وقلت وأنا أبتعد:

- «يبدو أنك صرت شاعرًا على كبر! واحسرتاه على حال الرجال..»

صاح محاولًا جعلي أسمعه:
- «أنا لا أخرف.. والله على ما أقول شهيد..»
لكني كنت قد ابتعدت..

*   *   *

ودعاني المونتير (عباس) كي أرى معه (الراشز) Rushes، وهو مصطلح يعنى اللقطات التي تم تصويرها اليوم السابق، ومن المعروف أنه لا وقت لدى لمتابعة عملية تقطيع الفيلم.. يقولون: إن هذه فرصة رائعة للمخرج ليعيد إخراج فيلمه مرّتين، وأفضل مخرجي العالم هم من بدءوا مهنتهم في غرفة (المونتاج)..

مخرجين على غرار (ديفيد لين) و(صلاح أبو سيف) و(كمال الشيخ)..
لكن من قال إنني أريد أن أكون أفضل مخرج؟ فقط أريد أن أكون أنجح مخرج.. أسرع مخرج.. أغنى مخرج..
وفي غرفة (المونتاج) - التي أمقتها - وضعوا أمامي كوبًا كبيرًا مليئًا بالقهوة.. على حين جلس (عباس) يدير آلة (الموفيولا) التي تعمل ببدال صغير، وتتيح لك رؤية المشهد على شاشة زجاجية صغيرة..
كانت تلك اللقطة الكريهة التي يصر الباب على أن ينفتح فيها في كلّ مرّة.. لدينا أربع نسخ منها، وإن كانت أول ثلاث نسخ

غير مكتملة، لأن صوتي كان يقطع المشهد في لحظاته الأخيرة..

فقط النسخة الرابعة كانت كاملة؛ وحتّى مشهد هروب البطل من الكادر مصممًا على الانتحار..

وفي هذه المرّة انفتح الباب بالكامل، واستطعت أن أرى من يقف في فتحته، واقفًا خلف البطل إذ يتكلم..

- «من هذا؟»

كان هذا سؤال المونتير، فلم أرد.. لم يكن هناك جواب..

ملامح الرجل غريبة حقًّا.. عيناه جاحظتان مليئتان بالذعر.. شعره منتصب كأشواك قنفذ، وها هو ذا يضع كفيه على

جانبي رأسه ويصرخ.. طبعًا صرخة صامتة لم يسمعها أحد..

وانتهت اللقطة هنا، إذ غادر البطل الكادر، وصاحت البطلة تناديه.. ثم صحت أنا بدوري أهنئهما على روعة الأداء..

وتبادلت النظرات مع المونتير أمام الشاشة الفارغة..

- «من هذا؟»

كرر سؤاله للمرة الثانية.. فقلت بصوت مبحوح:

- «لا أعرف.. ولم يره أحد في أثناء التصوير..»

وابتلعت ريقي، وأردفت:

- «هذا هو الشيء الذي كان يفتح الباب في كلّ مرّة.. لقد عجزت عيوننا عن

رؤيته، لكنّ خامة الفيلم الحساس استطاعت ذلك..»

وأقشعر جلد لهول الفكرة..

لقد نجح الفيلم الخام في اقتناص دليل مادي على....... على......

رباه!

* * *

ماذا يوجد خلف هذا الجدار؟

كانوا يراجعون التصميمات القديمة.. لا شيء سوى غرفة فارغة كانوا يستخدمونها قديمًا للمحولات، ويخزنون فيها مولد كهرباء.. ثم تم إلغاؤها منذ عدة أشهر.. وسدوا بابها بالقرميد..

كان مدير الاستوديو متشككًا كارهًا؛ لكني كنت مصرًّا، ووعدته بأن أعيد ترميم الفتحة على نفقتى الخاصّة..

وعند العصر جاء ثلاثة رجال، قاموا باستعمال المطارق والأوتاد الحديدية لتهشيم ثغرة في القرميد.. ثغرة تسمح بدخول رجل واحد لا أكثر..

وبعد نصف ساعة دخل أصغرهم حجمًا من حاملًا كشافًا ضوئيًا..

طبعًا سمعناه يصرخ..

هذا مفروغ منه وكنا نتوقعه..

* * *

وتم إجراء تحقيق سريع فعرفنا الكثير..

لقد حدث هذا في ذات الليلة التي كان البناءون عاكفين فيها على سد باب حجرة التوليد هذه..
إهمال معتاد حدث.. لقد عاد العمال إلى بيوتهم، وترك فني الكهرباء بعض الأسلاك العارية الخطرة.. وفي الليل تسلل متشرد ما لينام داخل الحجرة غير عالم بأن نهايته تنتظره في شغف..
في الصباح جاء فني الكهرباء ليجد جثة متخشبة على الأرض..
لقد حاول المتشرد أن ينام فوق قطبين عاريين لسلكين غليظين، والنتيجة هي أنه تفحم.. لم يجد الوقت الكافي ليصرخ...
وهنا اتخذ الكهربائي قراره...

لا أحد يعلم ما حدث.. لا أحد يعرف هوية المتشرد.. لن يبحث أحد عنه.. يمكن - بشيء من التدبير - أن يفلت من تبعات الإهمال الجسيم هذه..

وبسرعة أخلى الكهربائي الغرفة من كل ما يمت للكهرباء، ووارى الجثة المتصلبة في ركن مظلم وغطاها بالخرق القماشية، ثم خرج ليقف جوار الفتحة بانتظار عمال البناء حين يجيئون...

وخلال نصف ساعة ارتفع القرميد، ليسد باب الغرفة، وتحول المكان إلى قبر دائم للغريب، الذي لم يرتكب خطأ سوى محاولة النوم تحت أول سقف وجده..

لم يكن فني الكهرباء قد أخبر أحدًا بسره، لكنه انهار سريعًا حين استجوبناه، وحين

أحسّ بأن جريمته لم تمت بعد... هناك أشياء لا يمكن دفنها تحت التراب مهما حاولت..

* * *

يمكن بشيء من الخيال أن نقول إن شبح القتيل - مجهول الاسم - أحسّ بالباب الذي وضعوه أمام الجدار.. كان بابًا وهميًا، لكنة افترض أنه يقوده إلى الخارج.. إلى حيث يعرف الناس المأساة غير الضروريّة التي جعلته يفقد حياته، ولا يحظى بدفن لائق..

لقد نجحت خطّته.. وإن تكتم الاستوديو كل شيء حتى لا يُساء إلى سمعته..

وحينما قمنا بتوسيع الفتحة، ودخلنا الحجرة المنسية، كان ما رأيناه هو كومة من الخرق البالية في ركن مظلم..

أزحنا الخرق.. فوجدنا هيكلًا عظميًا يرتدي بقايا ثياب متفحمة..

إن الجماجم تتشابه بالتاكيد.. والفارق بينها لا يعرفه سوى طبيب شرعي..

لكنّ من شاهدوا فتحتي العينين في تلك الجمجمة بالذات؛ شعروا بأنهما تحملان اتهامًا صامتًا..

اتهامًا لنا جميعًا..

* * *

الباب الخامس:
كلوستروفوبيا



الباب الخامس

« كلوستروفوبيا »

تفتحه : «هيام»

«لا تكوني بلهاء يا (هيام).. يجب أن تخرجي من هنا أو تجدي خطة ما، قبل أن يتكفل الظلام الدامس بشل حركتك نهائيًا..»

- ١ -

قالت مدام (ناهد) وهي تتثاءب:

- «بالله عليك! يا لها من طريقة لإمضاء الأمسية! لقد اقشعر جلدي من هذه الأقاصيص، وإنني لأتساءل عن صاحب هذه الفكرة..»

قلت في كبرياء:

- «يا له من سؤال! إنّه أنا طبعًا..»

ابتسمت وتأرجح رأسها كأنما ثملى دون طلا؛ والحقيقة هي أن الساعات التي أمضيناها هنا جعلتني أقل كراهية ومقتًا لهؤلاء القوم.. ليسوا بالسخف ولا التفاهة ولا الإملال الذي حسبته.. يُمكنك أن تحب

أي إنسان ـ ولو كان إنسان (نياندرتال) - إذا أمضيت معه وقتًا كافيًا، وسمحت لوهجه البشري أن يلمس روحك.. حتى المخرج الأحمق والشاعرة التي تمقت الجميع.. كل هؤلاء يحملون طاقة إنسانية ما، وحين تدنو منهم تدرك أنهم ضحايا كسواهم...

قالت مدام (ناهد) وهي تنظر لضوء الفجر المتسرب على حياء من الخارج:

- «لقد نسيت ما نحن فيه.. تصوّر هذا! اندمجت في القصص حتى غابت عني تمامًا حقيقة موقفنا؛ وما ينتظرنا من علامات الاستفهام.. إن فكرتك لم تكن رديئة تمامًا يا د. (رفعت)..»

في هذه اللحظة بدأت (هيام) - ممثلتنا الصاعدة - تفتح عينيها.. لقد صار شكلها جديرًا بهذه الدقيقة.. دقيقة الاستيقاظ من النوم.. جفنان منتفخان، وشعر منكوش، ونظرة معادية كارهة للنور.. وبين شفتيها راحت تلوك ذلك الطعام الغامض الذي يلوكه النيام جميعًا..

راحت ترتجف قليلًا، فعقدت ذراعيها على صدرها، وقالت إنها تشعر ببرد شديد...

بعد ثوان.. غمغمت كالأطفال (عطشانة)، فجلب لها (محمود عوني) بعض الماء في كوب من دورق..

تثاءبت وتساءلت عن الساعة، فأخبرناها.. لطمت خديها غير مصدقة،

واحتاج الأمر إلى عشر دقائق كي تعود لصوابها..
قلت لها بلهجة آمرة:
- «هيا.. قصتك!»
صاحت في رعب:
- «ماذا؟»
- «قصتك مع الباب المخيف!»
قال لي الأستاذ (محمود) في رفق:
- «صبرًا يا د. (رفعت).. المسكينة تصحو من النوم في مكان غريب ومع غرباء، لتجد من يأمرها بأن تحكي قصة عن باب مخيف!»
- «إنّه الحماس كما تعلم..»
أخيرًا عاد للفتاة وعيها - يا لها من بلهاء - وهرشت شعرها بطريقة غير رومانسية

بالمرة، ثم قالت بعد ما تثاءبت كفرس النهر:

- «لدى قصة.. دعوني أحكها لكم..»

* * *

قالت (هيام):

- «يقولون إن حوادث الطفولة أشبه بالخدوش التي تترك على سطح لين من الأسمنت.. سرعان ما يجف فلا تمحى الخدوش أبدًا..

يقولون إن كل عقدنا ونحن بالغون، بدأت في طفولتنا..

يقولون.. يقولون..

وأحسبهم صادقين في هذا كله..

*   *   *

في طفولتي قارفت خطأ ما.. حقًّا لا أذكر ما هو.. لكنه كان هينًا بالتأكيد، وما هو الخطأ غير الهين الذي يمكن أن تقارفه طفلة في السابعة من عمرها؟

كان هذا في بيت عمتي، وكانت سيدة صارمة تؤمن بأن الأطفال (لازم يتربوا)، لهذا اعتصرت لحم ذراعي في غل بين إبهامها وسبابتها.. وراحت تضغط وتضغط، وهي تكشر عن أسنانها..

ثم دون مناقشة جرتني جرًا إلى السطح حيث (عشة الفراخ) الخالية، من بعد ما فتكت (الشوطة) بما فيها من دجاج..

كان المكان قذرًا، وفضلات الدجاج في كل مكان، لكنّ الأسوأ هو أنها أحكمت غلق الباب على من الخارج لأجد نفسي وحيدة في الظلام (كان الليل قد جاء)، دون بصيص من نور يتسلل من السلك المخصص للتهوية.. وسمعتها - وسط صراخي - تبتعد زاحفة بخفيها الثقيلين..

فقط قالت في لهجة محايدة تمامًا:

- «لازم يتربوا!»

وكذا وجدت نفسي أصرخ وأصرخ.. أضرب الجدار الخشبي بقدمي.. برأسي.. وفي ذهني تجمد كل شيء.. حتى (العاو) الذي كان يتحين فرصة كهذه ليخرج؛ أصابه الهلع فوقف فاردًا كفيه عاجزًا عن الكلام...

وبالنسبة للأطفال لا يوجد سوى المطلَق.. هم تركوني هنا، لذا سأظل حيث أنا للأبد.. لن أرى النور ثانية..

وبالنسبة للأطفال - كذلك - لا يوجد إحساس بالزمن.. لذا يصعب أن أقول كم لبثت.. بالنسبة اليّ بدا لي أنّ هذا امتد قرونًا، وبالنسبة لأبي بدا أنني لبثت ساعة..

لقد عاد ليجد أنني سجينة في (عشة فراخ) فوق السطح في الظلام، ولم أدر كيف وجدت نفسي في حضنه وهو يعتصرني بقوّة، ويقول مغضبًا لعمتي:

- «في (عشة الفراخ) يا (عنايت)؟! ماذا فعلته كي تستحق كل هذا في غيابي؟!»

ولم اسمع ما قالته عمتي بالتفصيل، لكنني ميزت آخر عبارة قالتها ألا وهي:

- «دول لازم يتربوا!»

* * *

حسن.. كانت هذه هي الخبرة العظمى في طفولتي، وكانت بداية مرض (الخوف من الأماكن المغلقة) الذي لم أشف منه قط..

فيما بعد قال لي الأطباء: إن مريض (خوف الأماكن المغلقة) لا يستطيع تذكر مناسبة معينة بدأت فيها شكواه.. كلهم يقول: لقد ولدت هكذا.. لكن - في حالتي هذه - كانت تجربة الطفولة واضحة وضوحًا مدرسيًا يثير الانبهار..

وفيما بعد عرف الجميع أنني لا أحتمل أن ينغلق باب علي، وفي الصف كنت أصرخ

هلعًا لو خرجت كل الطالبات وتركنني وحدي.. كما أنني في الحمام كنت أترك الباب نصف موارب برغم أنّ هذا غير لائق، لكنّ فكرة الباب المغلق كانت تتحدى أي حياء، واعتادت زميلاتي أن يعابثنني بأن ينتهزن أول فرصة ليغلقن على أي باب؛ لكنّ رد فعلي كان في الغالب شرسًا يثير الهلع في نفوسهن..

* * *

كبرت وبدأت أميل إلى فن التمثيل.. لا أدري لِمَ، لكنّ يبدو أنّ هذا نوع من العلاج الذاتي.. ولهذا لم أعد أندهش حين أسمع

عن الفرق المسرحية في المصحات النفسية.. إن التمثيل علاج لا بأس به..

اشتركت في مسابقة للوجوه الجديدة، وكان لي باع في الفرق المسرحية الإقليمية، ثم أرسلت لي مجلة (النجوم) خطابًا تدعوني فيه إلى مقابلة شخصيّة تتكون من عدة ممثلين وأستاذ مسرح عجوز..

وكما يحدث في الأسر المتوسـ... المتحفظة.. ذهبت مع (بابي) وأخي طبعًا.. و..

* * *

هنا تدخلت، لأنني لم أستطع منع نفسي:

- «تعنين بـ (بابي) أباك طبعًا؟»
- «هه؟ ماذا تريد؟»
- «الذي أنقذك من السجن في (عشة الفراخ) وأنت طفلة؟!»
- «د. (رفعت).. لا أفهم ما ترمي إليه..»
- «لا شيء.. أكملي قصتك..»

* * *

قالت (هيام) وهي ترمقني في لوم:
- «أجريت المقابلة الشخصية بنجاح، وأديت مشهدًا قصيرًا من فيلم لـ (فاتن حمامة) حفظته عن ظهر قلب.. الحق إنني كنت محظوظة، لأنني نلت قلوبهم وقبولهم من اللحظة الأولى، وعرفت أنني نجحت..

بعد هذا ترددت مرارًا على مكتب المنتج الذي رشحوه لي؛ وأعطاني (سيناريو) رديئًا لم يرق لي قط، لكنه أخبرني - في أدب ـ أنني لا أملك بعد الحق في الرفض..

وقال: Take it or leave it (خذيه أو اتركيه)، لكنّ أحدًا لن يقدم لك فرصة أخرى..

كان الإغراء شديدًا.. أن أرى وجهي مجسمًا على شاشة السينما العملاقة.. وعلى الملصقات.. إنها اللحظة التي يكفت فيها المرء عن أن يكون شخصًا عاديًا، ويتحول إلى رمز مطلق كالحق والخير والجمال..

كان عليّ أن أقبل، وظللت آمل أن أصل إلى درجة من القوة تتيح لي الاختيار.. لكنّ هذه اللحظة لم تأت قط..

وجاء اليوم الذي وقفت فيه أمام العدسة، و(الدوللي) يلاحق حركاتي، بينما الأضواء الساطعة تكشف كل تجعيدة وكل خلجة في وجهي.. الحق إنّه شعور رهيب، ولا داعي لأن أقول إنني فقدت الوعي في المرّة الأولى..

لكني - ببطء ـ بدأت أتخذ صورة النجمة متوسطة الشهرة، وكان التعليق الذي يلاحقني لا يتغير: فتاة بارعة الحسن لكنّها بلا موهبة، وصوتها مشروخ، ووجهها له كل القدرات المعبرة التي يمكن أن تجدها في وجه الحصان..

* * *

وضمت (هيام) شفتيها ونظرت للسقف كأنما تتذكر، فخفق قلبي، لأنّها في هذه اللحظة بدت كـ (ماجي) تمامًا.. قالت:

- «لا يهم.. لقد صرت شهيرة، وظهر وجهي ثلاث مرات على غلاف مجلة (النجوم)، وصارت لي شقّة في (جاردن سيتى) تنهمر عليها مكالمات المعجبين والمعجبات..

لكن داء (الأماكن المغلقة) لم يتركني لحظة..

* * *

- ٢ -

قالت (هيام):

- «كان اسم الداء كما وصفه (مراد) معالجي هو (كلوستروفوبيا).. وهو مكون من مقطعين (كلوسترو فوبيا) يقولون إن معناها (رهاب الغرف المغلقة).. وقد حفظت الاسم بلا عسر لأنني كتبته في كل أوراقي، وعلى كل جدار من شقتي..

أنا مصابة بالـ (كلوستروفوبيا).. قلتها لأمي فضربت بكفها المفتوحة على صدرها، وصاحت:

- «يا لهوي! لا تقولي هذا علنًا يا مجنونة وإلا لن يتزوجك أحد! كنت دومًا أحذرك

من الخروج للمدرسة دون إفطار!»

* * *

ظهر (عادل) في حياتي بعد ما عرض فيلمي الثاني..
تعرفته في حفل بعيد ميلاد إحدى الصاعدات مثلي.. كان مهذبًا له كل الصفات التي يمكن أن تصف بها رجلًا وسيمًا، لكنه ـ لا أدري السبب - بدا لي سمجًا يتطرف نوعًا، وفي طباعه شيء من طبائع الذبابة..
كان يلاحقني دائمًا، وله طريقة معينة يلتقط بها خيوط أية محادثة تخصني،

ليتدخل فيها بالإجابة والتعليق كأنما هو مندوبي الصحفي أو خطيبي مثلًا[3]...
كان يهيم بي حبًّا، لكنّ هذه مشكلته لا مشكلتي.. لست مطالبة بأن أحب كل من يحبونني، وإلا لقضيت حياتي دون شاغل آخر..
لكن الفتى صار كابوسًا دائمًا.. ما من حفل أو مكان أرتاده إلا وأجده.. وحتّى في أثناء التصوير في الاستوديو كنت أجد وجهه السمج يبتسم في ثقة مشجعًا لي.. ومن نافلة القول أن أقول إنّه كان صاحب علاقات عديدة في الوسط الفني ولم يكن وجوده مستغربًا في أي مكان.. باختصار: لا مفر منه..

في النهاية استسلمت وتركته يحيط إصبعي بخاتمه الذهبي في حفل خطبة كان حديث الصحف وقتها..

❋ ❋ ❋

لم أكن سعيدة على الإطلاق..

المفترض أن تسعد الخطبة أية فتاة، لكني لم أعد أية فتاة.. لقد صرت رمزًا كما قلت، ومن حقي اختيار أي شاب في أية لحظة يخطر لي هذا، وعليه أن يرقص فرحًا وفخرًا..

ما الذي يرغمني على معرفة هذا المهندس ثقيل الظل؟ إنّه لا يعرف سوى الإعجاب بنفسه، ولا يملك من الأفكار إلا

كل ما هو قريب ومطروق وممل.. وكنت أنا مجرد ديكور أنيق يجمل به نفسه..

وجاء الأوان الذي صارحته فيه بأننا لا نصلح لبعضنا..

كان طفلًا عنيدًا اعتاد الاستحواذ على كل شيء.. لم يطق أن تتخلى عنه دميته الجميلة.. الأطفال يلقون ألعابهم من الشرفة حين يملونها، ولم يحدث قط أن ألقت دمية بطفل من الشرفة..

وكما توقعت توهج الغضب في عينيه.. غضب وحشي، وهتف:

- «لا يا (هانم)! أنا لا يسهل الخلاص مني.. لن يكون ذلك إلا بإرادتي واختياري!»

ثم فرد ذراعيه في دهشة تمثيلية:

- «ثم ماذا يقول أصدقائي عني؟ لقد تركته النجمة الكبيرة، لأنّه لا يناسبها؟ ما هي الصورة التي سيتركها انفصالنا لديهم؟»

كنت أرتجف خوفًا، لكني قلت في ثبات:

- «(عادل).. أنا أتحدث عن مستقبلي، وليس المستقبل رهنًا بنزوات المجاملة، وقد أغلقت كلماتك هذه باب الرجعة لو كان هناك واحد!»

ووضعت الخاتم في كفه دون كلمة، عندها ابتسم بخبث، وقال:

- «باب الرجعة! إن هناك أبوابًا مغلقة أخرى!»

* * *

كانت كلماته كنبوءات العرافين الغامضة، التي تتضح سطورها فيما بعد.. ولم أفهم هذا إلا في وقت متأخر جدًّا..

هأنذا أركب سيارتي الجديدة عائدة من الاستوديو بعد انتهاء التصوير.. النصيحة التي يقولونها دومًا للأنثى سائقة السيارة هي:

«انظري جيدًا تحت المقعد الخلفي قبل أن تقودي.. نصيحة جيدة لكني نسيتها..»

ها هو ذا من يقول لي: توقفي!

أوقفت السيارة على جانب الطريق، وأقول في دهشة:

- «(عادل)! كيف تسللت إلى سيـ...؟»

وفي اللحظة التالية هوى شيء ثقيل على مؤخرة عنقي، وساد الظلام...

* * *

الآن أصحو لأجد نفسي على أريكة قديمة مهترئة.. الغبار في كل مكان، غرفة ضيقة تمامًا.. هذا ما استطعت أن أراه على ضوء متراقص لشمعة مثبتة على المسند الخشبي للأريكة..

أين أنا؟ ماذا حدث؟

طبعًا من الواضح أنني مخطوفة.. وخاطفي هو (عادل) طبعًا..

يا له من أحمق! يظن أنني بهذا سألين؟ لعله شاهد فيلم (جامع الفراشات) حين قرر

البطل المختل عقليًا أن يحتفظ بحبيبته في داره مع مجموعة الفراشات الخاصّة به، والغريب أنها بدأت تميل إليه في النهاية.. لكنّ (عادل) أحمق بالتأكيد..

ستنقلب الدنيا بحثًا عني، ولسوف يكون اسمه هو أول اسم في قوائم الشرطة، لأن قصة انفصالنا وتهديده على كل لسان..

ماذا يرمي إليه هذا المدلل؟

وكان أن وجدت ورقة موضوعة بعناية على الأريكة، تجيب باختصار على كل أسئلتي..

رحت أقرؤها في ضوء الشمعة وأرتجف:

«حبيبتي..

«ما كنت أتصور أن أعاملك (بهزه) الطريقة يومًا، لكنك قد

أرغمتني على (هاذا).. [سأحاول أن أتجاوز عن أخطاء اللغة ما دمتم تعرفون أن (عادل) خالي العقل وجاهل]..

«حين تطالعين هذا الخطاب، سأكون في طريقي إلى (بيروت) لأستجم بعض الوقت، وهو وقت قد يطول حقًّا..

«هذا البيت يخص قريبًا بعيدًا لي، وهو مغلق منذ أعوام طوال، لكنّ قليلين يعرفون أن مفتاحه معي، وهو بعيد تمامًا عن العمران.. وبلا جيران على الإطلاق، وآيل للسقوط بشدة...

«ستجدين الكثير من الطعام والمعلبات، وصنبورًا يمدك بالماء لأني لا أريد لك أن تموتي جوعًا أو ظمأ..

«وماذا عن الموت رعبًا؟

«هذا وارد بالتأكيد.. فقد عرفت جيدًا خوفك من الأماكن المغلقة، وأنت الآن في أكثر الأماكن انغلاقًا في الأرض.. هذه حجرة ضيقة قمت بإحكام غلق بابها ونافذتها الوحيدة، والبيت كله عتيق متهالك، لا يمكن المشي فوق لوح خشب دون أن يتهشم إلى نصفين، ولا يمكن الوثب في المكان دون أن يتساقط المصيص من السقف على رأسك..

«لقد تعمدت التأكد من عدم وجود ثعابين أو فئران كي لا أكون قاسيًا، لكني سأتركك تستمتعين بحق برهاب الأماكن المغلقة كما تسمينه.. وستطول فترة استمتاعك كثيرًا جدًا، لأن أحدًا لن يبحث عنك هنا.. سيبحثون عني ليستجوبوني، لكنّ كيف يجدونني في (بيروت)؟!

«سأعود يومًا، وعندها من يدري؟ ربما يكون كبرياؤك المرضي قد تهاوى بعض الشيء.. ربما يمكننا الكلام عن مستقبل مشترك

خطيبك (عادل)»

* * *

ما إن قرأت الخطاب، حتى تلاحقت أنفاسي، وشعرت بالشعور المعتاد في هذه المواقف: الاختناق.. الحاجة للهواء التي تدنو من الذعر..

ونظرت في هلع إلى الشمعة.. إنها الوحيدة ها هنا.. سيسود الظلام بعد وقت قد يطول أو يقصر، لكنه آت لا محالة.. وعندها.....

طار قلبي وعقلي شعاعًا، ورحت أبكي وأصرخ.. أصرخ وأبكي..

ومن جديد ـ كما في طفولتي - رحت أضرب الجدران مولولة طالبة الغوث.. أنا لم أفعل شيئًا.. لم أفعل شيئًا!

* * *

«دول لازم يتربوا!»

* * *

لبعض الوقت جننت تمامًا.. رحت أتوسل إلى عمتي كي تطلق سراحي.. أنادي أبي.. أتحاشى فضلات الدجاج على الأرض، ثم أثوب إلى رشدي.. فأنادي (عادل)..

وبعد ساعة رقدت منهكة أرتجف..

كانت الشمعة طويلة لحسن الحظ، كأنها من شموع الزفاف، وقدرت أن أمامي ساعة أخرى أنعم فيها بنورها المخيف..

ساعة.. و.....؟

من أشعل هذه الشمعة يا ترى؟ بالتأكيد (عادل) أشعلها جواري، ثم فر من المكان

قبل أن أفيق، وأوصد الأبواب بعناية.. هل يعني هذا أن الوقت كان ضيقًا أمامه في أثناء عملية حصاري؟

حملت الشمعة في يدي، وأمرت نفسي بالتماسك.. لا تكوني بلهاء يا (هيام).. يجب أن تخرجي من هنا أو تجدي خطة ما، قبل أن يتكفل الظلام الدامس بشل حركتك نهائيًا..

كانت الحجرة ضيقة ـ كما قال ـ بها نافذة موصدة بعناية، وقد ثبت عليها لوحان من الخشب بعدد من المسامير يفوق الخيال.. لو لم أجد (بنسة) هاهنا لكان هذا السبيل مستحيلًا..

يوجد باب.. باب عتيق الطراز لا يبدو بهذا التماسك...

لقد أغلقه (عادل) بقطعة خشب رقيقة واهية.. وكان من الطراز الذي ينفتح للخارج.. يبدو هذا حلًا لا بأس بهِ...

ونظرت في الحجرة حولي بحثًا عن جسم خشبي أو ثقيل.. كانت هناك في طرف الغرفة مكتبة متسخة مغطاة بالغبار ترتفع إلى مترين، أمامها مقعد خشبي يبدو ثقيلًا إلى حدٍ ما..

قمت بتثبيت الشمعة إلى الأرض.. وانتظرت حتى انتظم وهجها، وبدأت أتحرك في رقعة الضوء الخافتة..

حملت المقعد الخشبي بكثير من جهد، واتجهت إلى الباب، و.. بوم! دوى الصوت كالانفجار في الغرفة الضيقة.. وبدأ الخشب يذعن قليلًا.. ضربة ثانية ثم ثالثة..

توالت الضربات، وأملي يزداد..
أخيرا بدا الباب مترنحًا بانتظار الضربة الأخيرة التي تقهر عناده، وهي ضربة تحتاج إلى اندفاع.. ربما محاولة بالكتف كما يفعل المخبرون في السينما حين يقتحمون وكر عصابة..
تراجعت للوراء وأخذت شهيقًا عميقًا..
و.....
ثم لفت نظري شيء معين..

* * *

كان هناك باب وراء المكتبة!
باب ثان بالغرفة حاولت المكتبة أن تداريه لكنّها لم تستطع.. ظل إطاره بارزًا

إلى جانبها.. وهذا – ببساطة - معناه أنّ هذا هو الباب الحقيقي، وإلا فلماذا داراه (عادل)؟

سؤال جديد: كيف خرج (عادل) من هذه الغرفة؟ النافذة والباب كلاهما مغلق ومُحكَم من الداخل، ولو خرج من باب تدارية المكتبة، فكيف عادت إلى مكانها بعد رحيله؟

إجابة منطقية: (عادل) في مكان ما في هذه الغرفة! ربما يتوارى في مخبأ سرّي أو وراء الأريكة أو.... لا بد أنه كذب بصدد السفر إلى (بيروت)... وهذا يفسر الشمعة المضاءة بجواري.. لا بد أنه كره ألا يرى منظري مذعورة.. درت حول الأريكة في توجس لأرى..

ولم أجد الوقت الكافي لأصاب بالذعر للاكتشاف الرهيب؛ لأن (عادل) وثب بالفعل من وراء الأريكة، صائحًا:

ـ «مفاجأة!»

كان يحمل مطرقة في يده.....

وهكذا أطلقت صرخة وتراجعت للوراء، نحو الباب الذي أوشكت على اقتحامه.. وأزمعت أن أحاول الآن..

لقد جن الفتى.. جن تمامًا.. في ضوء الشمعة بدا لي كشيطان رجيم يريد تهشيم رأسي..

اندفع نحوي فتراجعت مبتعدة عن الباب، وفي اللحظة ذاتها لم يستطع التوقف... اندفع نحو الباب كثور هائج، فلم يتحمل

الباب هذه الضربة الأخيرة وانفتح للخارج..

وسمعت صرخة رعب هائلة، ثم اختفى (عادل) من أمامي..

ومن حياتي أيضًا..

❋ ❋ ❋

كنت واقفة أرتجف أمام الباب المفتوح، أرمق الهاوية التي سقط فيها.. لقد كانت شرفة! شرفة سقطت منذ زمن.. لكنّ بابها ظل هناك، وكانت على ارتفاع ثلاثة طوابق من الطراز القديم... أي ما يعادل ستة طوابق من الطراز الحديث!

والهواء قد اصطبغ بلون الغسق المهيب..

كانت الشرفة تطل على فناء فسيح ملئ بالمهملات، وبعض برك الماء الآسن، ووسط القاذورات وجدت جثة (عادل) وهو يرمق السماء غير مصدق ما انتهت إليه دعابته..

وارتجفت في هلع..



اندفع نحـو البـاب كـثـور هـائـج ، فلم يتحـمـل البـاب هذه الضربة الأخيرة وانفتح للخارج ..

هذا المصير كان بانتظاري لو حاولت اقتحام الباب المغلق..

(عادل) كان يتوقع هذا ويتمناه، وترك لي شركًا متعمدًا هو لوح الخشب الواهي على الباب، ليغريني بالمحاولة، بالطبع بعد ما أعد الباب لينفتح للخارج..

كان يلاعبني كقط يتسلى برؤية محاولات فأر للتملص..

❋ ❋ ❋

وحين استطعت أخيرًا أن أزيح المكتبة الثقيلة، استطعت أن أمد يدي إلى مقبض الباب وأفتحه في حذر..

أفتحة متوقعة الأسوأ..

لا شيء سوى درجات تقودني إلى أسفل.. لقد نجوت، ولقي (عادل) مصيرًا لم يتوقعه قط.. والأقسى هو أنني لن أبلغ الشرطة كي لا أسبب شوشرة.. المنزل متهالك و(عادل) يملك مفتاحه.. لقد حدث خطأ جسيم يا سيدي.. لقد نسي أن الشرفة لا وجود لها.. هذه الأشياء تحدث..

من يدري؟ لربما انتحر بسبب فشل قصة حبّه لممثلة حسناء تُدعى (هيام).. هل تعرفها؟ إنها جميلة جدًا.. لكنّها لا تجيد التمثيل..

حقًا ما أخطر ما قد ينتظرنا خلف باب مغلق!

* * *

«دول لازم يتربوا!»

❋ ❋ ❋

الباب السادس:
أمنية واحدة



الباب السادس

« أمنية واحدة »

تفتحه : « مدام ناهد »

« تقززت من الفكرة، لكننى تقززت أكثر من أن ينفتح الباب لأجد هذا الشيء المقيت أمامي.. ترى لماذا قبلت المبيت ها هنا؟ »

- ١ -

الآن يمكن القول إننا في النهار..

الضوء الأبيض الساطع النقى يتسرب من كل الستائر، وتلك الدغدغة في أذهاننا جميعًا تجعل الرؤية مشوشة والخواطر مضطربة.. وقال (محمود عوني) ناظرًا في ساعته:

ـ «لقد قضينا الليل بأكمله ها هنا.. تصوروا هذا!»

لكنّ أحدًا لم يتصوّر لأن هذا هو ما حدث فعلًا.. ونهضت متثاقلًا لأفتح نافذة وأنظر إلى الخارج عبر القضبان الحديدية.. سعلت مرّتين بسبب الهواء النقي الذي لم

ً

أعتده من قبل، ثم عاودت النظر.. حقًّا هو منزل منعزل تمامًا، ناء عن العمران.. ومهما صرخنا منادين لن يسمعنا أحد..

قلت دون أن ألتفت:

- «لقد دنا موعد خلاصنا.. حتمًا سيحدث شيء في صالحنا..»

قال المطرب الولهان بصوته المبحوح:

- «حان وقت سماع قصتك يا د. (رفعت)..»

- «أفضل الانتظار للنهاية.. إن قصتي رهيبة بحق، وأفضل أن يكون النهار قد أعلن كامل ملكوته حتى لا أتلف أعصابكم..»

- «إذن هو دور مدام (ناهد)؟»

- «لو سمحت بهذا..»

جلست مدام (ناهد).. وأصلحت وضع شعرها المستعار الخزفي على رأسها، وكان قد اتخذ كل الأوضاع الممكنة منذ بداية السهرة، حتى لم يعد شعرًا مستعارًا، لكنّ عمامة على رأس (مهراجا) هندي مخبول..

قالت بعد شهيق عميق:

- «حقًّا كانت لي قصة مع باب مغلق.. لا أدري إن كانت مخيفة.. لكنّها بالتأكيد شائقة..»

* * *

الباب الأول كان يدارى سرًا شيطانيًا لملحن شهير..

الباب الثاني كان يداري غريقًا اتضح أنه ليس كذلك..
الباب الثالث كان سبب فشل جريمة..
الباب الرابع كان يخفى انتقام شبح من قاتليه..
الباب الخامس كان شركًا مميتًا..
أمّا بابي أنا فكان يختلف كثيرًا جدًّا..
كان هو تجسيد كوابيسي كلها.. ولكم تمنيت ألا ينفتح أبدًا..

* * *

سافر (جابر) إلى مؤتمر علمي في (اليابان).. مؤتمر له ذلك الاسم الطويل الذي لا يمكن حفظه على غرار (المؤتمر

الرابع عشر لجراحات الأنسجة المكونة لعناصر الدم - ورشة عمل).. إلخ.

ولما كانت علاقتنا حميمة جدًا؛ كان الوداع مؤثرًا بحق...

- «حان الوقت.. سلام!»

- «حسن..»

ووضع جواز السفر تحت إبطه، ولحق بالسائق.. وهو مشهد رأيته عشرات المرّات في حياتي.. كنت أصر على أنه لا يحبّ شيئًا في الكون سوى عمله وسوى نفسه، بينما كان يرى أنني لا أحب سوى المال والمظهر الاجتماعي.. محاولة الظهور كـ (ليدي)، ذلك الداء الذي يصيب زوجات الأطباء الناجحين كثيرًا جدًّا...

أنا لم أطلب شيئًا سوى أن أجده بجانبي... طيلة حياتي الزوجية كنت أتصرف كأرملة.. أفعل كل شيء وحدي.. أحضر الحفلات وحدي.. أذهب للأعراس وحدي.. أتعاقد على الهاتف وحدي.. أدفع العوائد وحدي.. أزور شقيقاته وحدي.. أشتري ثيابي وحدي..

فقط حين يظهر ـ في الثالثة بعد منتصف الليل ـ أتذكر أنني متزوجة وأن زوجي حي يرزق.. لكنّ هذا لا يدوم أكثر من نصف ساعة بعدها يتعالى شخيره، وفي الغالب يغادر الدار في السابعة صباحًا وأنا نائمة، لهذا تعد له الخادمة طعام الإفطار..

والكارثة هي أن كثيرات يحسدنني على هذا الزوج الناجح، ويتململن من أزواجهنّ

الموجودين بكثرة، ولا يكفون عن العبث في أصابع أقدامهم على الأريكة، وهم يتابعون بتوتر مباراة الأهلي الأكثر أهميّة لهذا الموسم...

زوج غير موجود أبدًا.. وزوج موجود دائمًا..

وعلى المرأة أن تختار أحدهما للأسف..

رفعت سماعة الهاتف وطلبت (نرمين) صديقتي، وهي أرملة شابة تعيش في (المقطم) بدورها:

- «(نرمين).. هل لديك ارتباطات لهذه الليلة؟»

دوّت ضحكتها الرفيعة الشبيهة بضحكة (عرسة) أصابها سرطان الرئة، وقالت:

- «لماذا تتحدثين بهذه الصيغة الرسمية؟ ليست لدى ارتباطات طبعًا.. إن بعضهن آتيات لزيارتي لو كان هذا لا يضايقك..»
- «البتة..»

وهذه من أوجه الخلاف بيني وبين زوجي، فأنا اجتماعية كأفراس النهر، بينما هو متوحد نوعًا، وإن كان يقبل الاجتماعيات، لأنّها تتيح له التألق الإعلامي الذي يهواه...

وهكذا ركبت سيارتي الصغيرة، وتوجهت إلى منزل (نرمين)، وهي لا تعيش وحدها لكنّ لديها طفلين وخادمتين.. وهذا شيء محبب في مكان منعزل كهذا..

وفي دارها احتشدت أربع نساء من الشلة، بعضهن أعرف جيدًا، وهن جميعًا من

نادي (الأرامل/المطلقات/المحبطات) الذي انضممت له من زمن.. في هذا النادي يغدو الرجال شيئًا منسيًا بعيدًا أو مكروهًا كالجحيم..

كان الكلام تافهًا سطحيًا... كالعادة، والدعابات مكررة.. باختصار كانت أمسية رائعة من الطراز الذي يروق لي!

وفي الحادية عشرة مساء فرغنا من العشاء، وجلسنا على مائدة مستديرة نلعب (الكونكان) ونصغي لغناء (أم كلثوم)، وكانت هناك امرأتان تدخنان، رفعت واحدة منهما رأسها للسقف، وراحت تنفث الدخان في هيام.. وتغمغم:

- «يا سلام يا ست!»

بعد نصف ساعة، وقفت (نرمين) وأعلنت أنها تشعر بالملل، وأن ألعاب الورق لم تعد تروق لها، ثم قالت وعيناها تلتمعان بالحماس:

ـ «سأريكن مفاجأة صغيرة!»

* * *

«اللي شفته.. اللي شفته..

قبل ما تشوفك عنيه، عمر ضايع يحسبوه إزاي عليا؟

اللي شفته.....

* * *

كلا لم تعد لنا بلوح (ويجا) الذي تستخدمه النساء لتحضير الأرواح، لو كان هذا ما جال بذهنكم، وهو تسلية نساء كثيرات من هذه النوعية..

عادت بشيء ألطف بكثير.. جمجمة آدمية موضوعة فوق وسادة من (الساتان) الأحمر، وقد وضعت شمعتان قصيرتان في مجرى العينين الرهيبين.. رباه! لم يكن منظرًا محببًا بالتأكيد؛ خاصة مع ضحكة الموت العابثة الساخرة على فم الجمجمة..

قالت إحدى النسوة ضاحكة:

- «يا ساتر! هل قررت استدعاء العفاريت لقضاء الأمسية؟»

نظرت لنا (نرمين) لترى تعبيرات وجوهنا، التي تباينت بين التقزز والفضول

والاستمتاع، وقالت:

- «إن لهذه الجمجمة شأنًا كبيرًا.. وقد حصلت عليها مقابل مبلغ لا بأس به من المال من ساحر (تنزاني) جاء إلى (القاهرة) منذ أسبوع..»

انفجرت النسوة مقهقهات، وسعلت إحداهن كثيرًا ثم قالت بين ضحكاتها:

- «هوهوهوه! هيهيهي! أنت أيضًا وقعت في شرك هذا الساحر؟ لقد وقعت (نازك) هانم في شرك مماثل.. إن (القاهرة) تعجّ اليوم بهؤلاء السحرة الأفارقة؛ وقد تقاضى الرجل منها ألفي جنيه مقابل أن يجعل..... هي هي! هوهوهوه! يحبّها ويطلب يدها للزواج.. أنت تعرفين الفراغ الذي تعيش

فيه منذ مات زوجها.. وحسبت تلك الشمطاء أن.....
هنا قاطعتها إحدى الجالسات في استمتاع:
- «يجعل من يطلب يدها؟»
قالت في مكر وهي تنفث دخانها:
- «لن أقول.. البيوت أسرار!»
- «بالله عليك قولي يا (سوزي).. إن هذا خبر الموسم..»
كانت (سوزي) تتمنى الإلحاح، وبالطبع كانت ستذكر الاسم:
- «الأستاذ (محمود عوني)!»
وانفجرت النسوة ضاحكات كما يضحك المعلمون في مقهى (بعجر)، فلم ينقصهن إلا أنّ يبصقن على الأرض، ويطلبن المزيد من الشاي (الكشري)...

* * *

وهنا قطعت مدام (ناهد) حكايتها، ونظرت معتذرة إلى الأستاذ (محمود عوني) قائلة:

- «معذرة يا أستاذ.. هذا هو ما حدث..»

لكنّ فارس الأحلام كان نائمًا، وقد تدلى فيه في غباء، وتصاعد منه شخير كفيل بإيقاظ الصم.. ابتسمت لي، فقلت لها:

- «لا عليك يا سيدتي.. إن الرجل لا يضايقه في شيء أن تستعين النساء بالسحرة كي يحصلوا على حبّه.. لربما كان هذا مصدر فخر له إلى حدٍ ما، حتى ولو كن من طراز (نازك) هانم هذه..»

قالت مدام (ناهد):

- «إن النساء قد ينجذبن إلى عقل الرجل الناضج أحيانًا..»

- «لكنّ ليس دائمًا للأسف! يمكنني أن أؤكد لك هذا!»

* * *

قالت مدام (ناهد):

الحقيقة هي أنّ هذه المجموعة من النسوة كن حشدًا من العقول الخاوية التافهة.. لا يثير شغفهن سوى آخر فضيحة، ويسيل لعابهن للقيل والقال.. إنهن عاطلات بالوراثة، ثريات إلى حد الاختناق، وفكرهن أضحل من فكر دجاجة...

حقًا! أحيانًا كنت أشعر أنني وسط مجموعة من الدجاج، لا يكف عن الصياح والتضارب بالمناقير، وبعثرة الأرز...
أعود لقصتي إذن....
قالت (نرمين) في كبرياء وهي تمسك بالجمجمة:
- «إن السحرة يختلفون.. هذه الجمجمة هي الساحر (تنزاني) فائق القدرات، ومن المؤكد أنها تحقق أمنية واحدة لكل من يطلب منها شيئًا..»
- «هذا ما قيل لـ (نازك) بالحرف!»
ومن جديد دوّت الضحكات الساخرة.. هي ي ي ي ي..
الآن يحمر وجه (نرمين) في عصبية.. تضع الجمجمة على المنضدة المستديرة

بينهن.. تأخذ قداحة إحداهن لتشعل بها الشمعتين في المحجرين.. تقول في تحد سافر:

- «دعينا نجرب! وسنرى من يضحك أخيرًا...»

- «رهان؟»

- «رهان...»

- «فلتبدئى أنت يا صغيرة.. اطلبي شيئًا عسيرًا مثل.. مثل...»

وحكت (سوزي) ذقنها المزدوجة بظفرها، ثم قالت في خبث:

- «اطلبي أن يعود زوجك المرحوم للحياة!!»

* * *

- ٢ -

لثوان ساد صمت بليغ، وتلاقت عينا المرأتين في تحد واضح، ثم همست (نرمين) بصوت مبحوح:

- «ليكن.. سأتمنى هذا الآن!»

انتصب شعر ساعدي ذعرًا، وصحت:

- «لا يا (نرمين)! لا مزاح في أمور كهذه.. كله إلا هذا..»

في تحد همست دون أن تنظر لي:

- «تأخرت يا صغيرتي.. أتمنى أن يعود زوجي لي!»

❋ ❋ ❋

نصاب يكسب رزقه من الثريات خاويات العقل..
هذا هو ساحرها الإفريقي.. حتمًا هو كذلك.
ولكن.. لو كان هذا صوابًا؛ فلماذا انطفأ النور الكهربي في اللحظة ذاتها؟!

* * *

دوّت بعض صرخات، وشهقت واحدة منهن حينما لم يعد من نور سوى البصيص الأحمر المنبعث من عيني الجمجمة..
ثم عاد النور الكهربي من جديد.. ومعه ساد جو من التوتر.. لقد مات المرح للأبد، وبدا أن الخوف قد انضم لمجلسنا..

همست إحداهن ويداها ترتجفان:

- «أخشى.. أخشى أننا ارتكبنا خطأً جسيمًا..»

في ثقة قالت (سوزي) وهي تنهض:

- «لا تكوني سريعة التأثر يا (ناني).. هل تتصورين أن نجيء غدًا لنجد (قاسم) بك جالسًا في غرفة المعيشة يشاهد التلفزيون؟ لو كان هذا ممكنًا لطرت فرحًا.. سأتمنى وقتها أن يموت زوجي أنا!»

وانفجرت ضاحكة لكنّ أحدًا لم يشاركها المرح..

وببطء بدأت الموجودات ينسحبن.. كل واحدة منهن تقبل (نرمين) وتشكرها على السهرة اللطيفة، ثم تهرع بخطا مرتجفة

نحو باب الخروج، كأنما تتنفس الصعداء....

❋ ❋ ❋

وكذا وقفت و(نرمين) نتبادل نظرات صامتة تقول الكثير....

قالت وهي ترتجف انفعالًا:

- «هل ستتركينني أنت أيضًا؟»

كدت أفتح فمي، لكنّها احتضنتني في عنف، وهمست والدموع تخنق صوتها:

- «أرجوك لا تذهبي! إنني خائفة.. أموت هلعًا..»

- «لكنّ.....»

- «إن زوجك مسافر لعدة أيام، ولا أطفال لك.. ما المشكلة لو أمضيت معي ساعات الليل هذه؟ سأطلق سراحك في الصباح.. فقط لا تتركيني في ساعات جزعى وتوجسي..»

ماذا أقول؟ لا شيء طبعًا..

وهكذا قبلت أن أمضي الليل مع (نرمين)، والحقيقة هي أنني خفت بدوري أن أعود لبيتي الخالي في هذه الليلة بالذات.. هي لديها خادمتان وطفلان وبرغم هذا خائفة.. ماذا عنى أنا؟

* * *

اتجهت (نرمين) إلى المطبخ، وعادت حاملة صحفة عليها كوبان من الشاي لا يدلان على براعة في التقديم.. ووضعتها أمامي..

- «أين الخادمتان يا (نرمين)؟»

- «في إجازة.. ألم تلحظي هذا طيلة السهرة؟»

- «والطفلان؟»

- «نائمان كالملائكة في غرفتهما.. سنتكلم قليلًا وتحكين لي عن آخر مشاكلك مع زوجك، ثم ندخل لننام في غرفتي.. ولن نتكلم عن السحرة الأفارقة أبدًا إذا كان هذا يروق لك..»

- «ليس أحب لي من هذا..»

وكذا أمضينا ساعة أو أكثر في ثرثرة نسائية سخيفة، ثم نهضت (نرمين) وتمطت وأعلنت أن الوقت قد حان للنوم..

*   *   *

كان هذا حين بدأ جرس الباب يدق...

تبادلنا نظرة فزعى.. نظرة أنثيين سمعتا جرسًا بعد منتصف الليل.. وهمست في رعب:

- «جرس الباب! هل تنتظرين أحدًا؟»

مطت شفتها السفلى أن لا، وأنصتت السمع..

- «لا بد أنه متشرد قد.....»

من جديد عاد الجرس يدق بإصرار، ضاغطًا على أعصابنا بإلحاح وازداد توترنا..

رأيتها تهرع لتفتح الباب، دون حيطة، فصحت بها:

- «توقفي يا حمقاء! لا بد من أن نعرف القادم أولًا..»

كان هذا سهلًا.. فالبيت يشبه بيتي.. (فيللا) من طابق واحد، لها باب رئيسي مزود بعدسة كاشفة..

أضأت نور المدخل، ونظرت عبر العدسة، فلم أر أحدًا.. كان المدخل خاويًا، فلابد أن من دق الجرس كان يقف جوار الباب الآن حيث لا يُرى بسهولة.. وبالتأكيد لغرض يختلف عن بيع اللبن..

كانت هناك خرق من قماش ملقاة كيفما اتفق أمام المدخل، لكني لم أدر سبب وجودها في تلك اللحظة..

- «من الطارق؟»

سألتني في لهفة، فهززت رأسي:

- «لا أدري.. لكنّ بوسعنا تركه حيث هو.. شيء يحدثني أن فتح الباب حماقة ما بعدها حماقة..»

دوى رنين الجرس ثانية..

ثم جاء صوت الطرقات العنيف المصر.. طرقات من يعرف أن له كل الحق في الدخول هاهنا..

بوم بوم! بوم بوم!..

ثم صوت رجل ينادي:

- «(نرمين)! (نرمين)!»

* * *

نظرت لوجه (نرمين) آملة أن أجد عدم الفهم على وجهها، لكني وجدت وجهها يتبدل ببطء - كما يتحول بطل الفيلم إلى مذءوب في السينما - ليمر بطور من الدهشة، فالرعب، فالحيرة، فالفهم، ثم بدأت ابتسامة ترتسم على ملامحها..

ابتسامة هي أقبح ما رأيت في حياتي...

- «(قاسم)! لقد عاد!»

- «هل تمزحين؟»

- «الصوت صوته.. لقد عاد بحق!»

ومن جديد عاد الطرق والرجل يصيح في نفاد صبر:

- «(نرمين)!»

رباه! وقطع القماش الممزقة أمام الباب!

ورأيتها تهرع إلى الباب، وتعالج المزلاج في هستيريا، وهي لا تكف عن الصياح كأنما جن جنونها:

- «زوجي! لقد عاد! ليس معه المفتاح! الأكفان لا تصلح لتعليق المفاتيح.. هذا طبيعي.. صبرًا يا (قاسم).. سوف.......»

- **«هل جننت؟»**

وهرعت أمنعها..

لن يدخل هذا الشيء إلى المكان، أكان زوجها أم لم يكن.. يجب أن أمنع هذه المجنونة من... كانت قوية بحق وقد منحتها اللهفة قوة عاتية.. لكني تشبثت بمعصمها فلمّا لم أفلح غرست أسناني بقوّة

في لحمه.. صرخت وتراجعت للوراء، بينما الصوت يتوسل:

- «(نرميين)! البرد شديد ها هنا!»

صاحت في تنمر وهي تتحسس موضع العضة:

- «هل جننت أيتها الحمقاء؟»

- «بل أنت من جُن هنا.. كيف تسمحين لشيءٍ كهذا بدخول دارك؟ لو كان زوجك فهي كارثة، ولو لم يكن زوجك فالكارثة أعظم..»

- «لكنه (قاسم).. زوجي!»

- «يا سلام! ألا تجدين ما يخيف في كل هذا؟»

بدت على وجهها رقة بلهاء، وهمست بينما الطرقات تتعالى:

- «(قاسم) رقيق كالحلم، ولن يؤذينا..»



وهرعت أمنعها ..
لن يدخل هذا الشيء إلى المكان ..

المصيبة هي أنني بدأت أصدق هذا.. كنت واثقة من أن الموتى لا يغادرون قبورهم، لكنّ ما هي قدرات السحر الأسود بالضبط؟ هل يمكن أن.....؟

- «(نرمين).. أرجوك لا تفتحي هذا الباب!»

- «أريني سببًا يمنعني! لقد تحققت أمنيتي الوحيدة!»

- «ولكن......»

هنا وجهت ركلة لساقي، ثم كورت قبضتها ودفنتها في معدتي، وعندها وجدت نفسي أتلوى على الأرض، بينما هي تعالج المزلاج في صبر...

- «أين وضعت المفتاح؟ لقد أغلقته بالمفتاح.. سوف....»

وهرعت تفتش عن مفتاح الباب، بين كل تلك الأكواخ الخزفية التي يعلقونها جوار الأبواب لتتدلى المفاتيح منها...
لم تكن أمامي فرصة أخرى سوى.....
ها هي ذي الجمجمة.. مازالت تضحك ضحكة الموت الساخرة، وبقايا الشمعتين في المحجرين لن تنته بعد..
هل يمكن أن؟
تقززت من الفكرة، لكنني تقززت أكثر من أن ينفتح الباب لأجد هذا الشيء المقيت أمامي.. لماذا قبلت المبيت ها هنا؟
ودنوت من الجمجمة، وأغمضت عيني، وتمنيت بصوت عالٍ:
- «أتمنى أن يرحل هذا الشيء الآن!»

وانتظرت أن ينطفئ النور، فقد تعلّمت أنّ هذه هي علامة قبول الأمنية، لكنّ شيئًا لم يحدث..

أغمضت عيني وتمنيت بصوت أعلى.

- «أتمنى أن يرحل هذا الشيء الآن!»

وعندها حدث شيء غريب..

* * *

انفتح الباب لأجد.. كل النسوة اللائي كن في الأمسية يدخلن للمكان، وكلهن يقهقهن في مرح مجنون، ومعهن بواب الفيللا الذي رأيته عند قدومي في بداية الأمسية..

والأغرب كان التبدل في موقف (نرمين).. لقد استندت بذراعها الأيمن إلى

الباب كأنما لا تستطيع الوقوف، وراحت تهتز مرارًا بضحكة مجنونة.. ثم انتصبت مترنحة، وصاحت:

- «هي هي هي! هل رأيتن؟»

ثم أشارت إلى البواب الذي كان يضحك بدوره:

- «هذا هو صوت المرحوم زوجي!»

كنت الغباء مجسدًا، لذا قالت (سوزي) وهي تجفف دموعها ـ دموع الضحك ـ بمنديل:

- «معذرة يا (ناهد).. لقد راهنتني (نرمين) على أنها قادرة على جعلك تموتين ذعرًا.. قلت لها إنك قوية جريئة، لكنّها أصرت على هذا.. طلبت مساعدتي، وأعدت لك هذه التمثيلية من الجمجمة إلى

الطرقات على الباب.. وطبعًا (عباس) هو من أطفأ النور لحظة التمني.. لقد بلغ بك الذعر إلى حد أن تتوسلي إلى هذه الجمجمة الحمقاء!».

نظرت لهن غير مصدقة، وقلت شيئًا على غرار:

- «أنتن.. أنتن.....»

ضربت (نرمين) على كتفي في مرح، وهتفت:

- «لا تنسى أنك مزقت لحم ساعدي.. هيا يا صغيرتي be a sport.. (كوني ذات روح رياضية)!»

انتزعت يدها في عصبية، وهرعت أغادر هذا المنزل المنحوس في الظلام...

مزحة! مزحة قاسية! من أي حجر قوت هذه القلوب؟ إمرأة تقحم ذكرى زوجها الراحل في مزحة كهذه، ونسوة ظللن ينتظرن في الظلام كل هذا الوقت كي يتسلين على حسابي.. وأنا.. أنا الحمقاء التي تم استغلالها عاطفيًا ونفسيًا دون ذنب جنته...

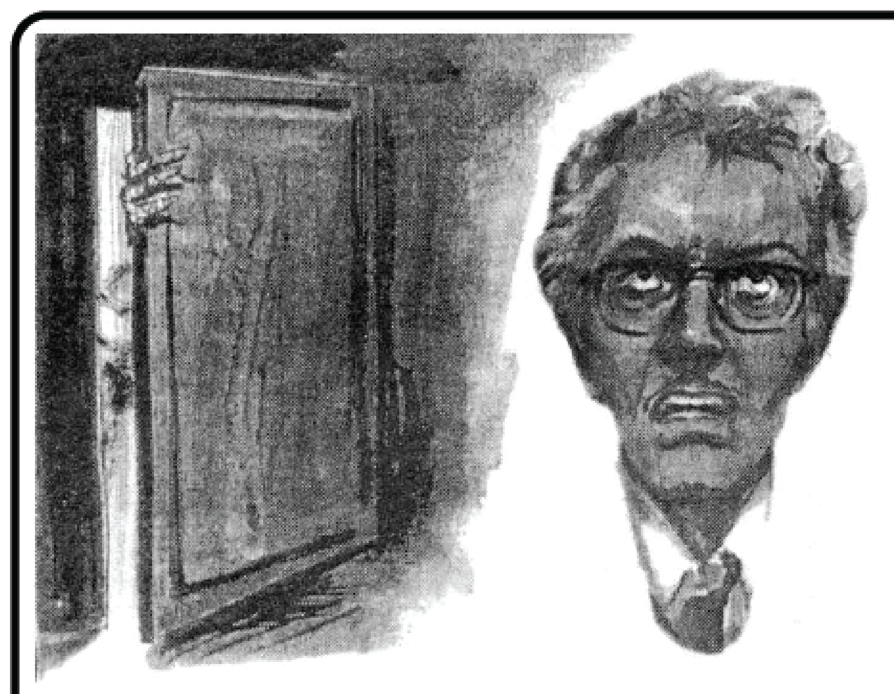
كنت أقود سيارتي، أكاد لا أرى شيئًا من الدموع، وأقول من بين أسناني:

- «حمقاوات! عشيرة من الدجاج خاوى العقل! غبيات!

غبيات! غبيات!»

* * *

البــــاب الســابـــع:
زنزانة خريولسن



الباب السابع

« زنزانة خريولسن »

يفتحه : « د. رفعت إسماعيل »

« لم أعلم وقتها ما يرمي إليه الرجل حقًا، ولم أعلم أنني أول دم أجنبى يدخل هذا الكهف من سبعة أجيال.. »

- ١ -

انتهت مدام (ناهد) من قصتها؛ وكان من السهل أن تدرك الأثر الحقيقي لما حدث لها، من رجفتها، والدمع الذي بدأ يحتشد في عينيها ويسيل من أنفها.. إهانة لم تعتدها ولا تجد لها داعيًا..

قلت وأنا أثنى ساقي تحتي:

- «كنت أتوقع هذه النهاية بسهولة.. فعودة الموتى من قبورهم أمر يتعارض مع الدين ومع العلم ما.. والإساءة الحقيقية التي سببتها لك هذه الدعابة هي جعلك تفترضين أنّ هذا ممكن.. لقد اصطدمت في حياتي بكثير من التجارب المماثلة؛ لكنّ هذا

المقياس لا يخيب أبدًا.. ربما قابلت مذءوبين، وربما قابلت أشباحًا أو مصاصي دماء، لكنّ الموتى لا يعودون من قبورهم أبدًا..»

- «لم يكن ذهني بهذا الوضوح وقتها..»

هنا سألني المطرب الولهان بصوته المبحوح:

- «هل لديك بدورك قصة عن باب؟»

نظرت حولي.. كان (محمود عوني) نائمًا، وكذا شاعرتنا الثائرة.. وقد ضايقني هذا لأني فقدت اثنين من جمهوري.. لكنّ ما كنت أملك حماسًا زائدًا يجعلني أوقظهما...

قلت بعدما تثاءبت:

ـ «سأحكي لكم أفضلها.. ولكن لاتقا..آآآ.. طعوني..»

❋ ❋ ❋

قلت لهم:

الباب الذي أتحدث عنه لم يكن في مصر..

لم يكن في مكان تعرفونه...

الباب الذي أتحدث عنه لم يكن بابا خشبيًا أو حديديًا؛ بل كان أقرب إلى جدار سميك يُهدم ولا يُفتح...

لكن الناس هناك كانوا يسمّونه بابًا...

❋ ❋ ❋

كان هذا في (إنجلترا).. في كهف قرب قرية في (ويلز)...
كان الفلاحون يمرون أمام الكهف، ويتكلمون عن (خريولسن) الحبيس هناك، وعن الساحرة التي أنجبته، والتي أعدمتها محاكم التفتيش ودفنتها ها هنا.. في ما سموه بـ (زنزانة خريولسن)...
قالوا إن الساحرة في لحظة احتراقها قالت:
- «سيحل الشؤم بكم سبعة أجيال.. وسيعود ولدي (خريولسن) حين يفتح الباب له رجل من دم أجنبي..»
كانت هذه هي النبوءة وقد نسيها كثيرون....

لكن ما لم ينسه أحد هو أن المصائب لم تفارق القرية لحظة، طيلة تاريخها المديد...

❋ ❋ ❋

وبعد أعوام طويلة جئت إلى الكهف، لأقف أمامة مع د. (هنري ليستر)، وقال لي الرجل كلامًا كثيرًا عن الآثار العتيقة التي وجدها في هذا الكهف، والتي تضيف الكثير إلى معلوماتنا عن تاريخ (ويلز) في القرون الوسطى...
ناولني مطرقة، وطلب مني أن أفتتح هدم هذا الباب الحجري، الذي يفصل ثلث

الكهف عن ثلثيه، والذي لم يجرب أحد عبوره.

- «ولماذا أنا؟»

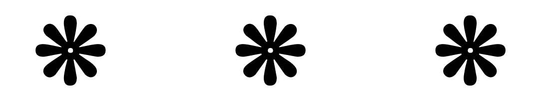
- «لأنك. ضيفنا.. وهذا شرف لنا..»

وانتشيت فخرًا، وبدأت أول ضربات أحاول بها تهشيم هذا الجدار.. ولم أعلم وقتها ما يرمي إليه الرجل حقًّا، ولم أعلم أنني أول دم أجنبى يدخل هذا الكهف من سبعة أجيال.. ولم....

❋ ❋ ❋

وهنا توقفت عن سرد قصتي...

لقد سمعنا جميعًا صوتًا غريبًا جمد الدم في عروقنا...



الخاتمة

«أنا لو أنساكي حافتكر مين؟

.. من بعد هواكي حياتي أنين»

- ١ -

لم أجد الوقت الكافي لاستكمال قصتي عن زنزانة (خريولسن)، والتي أعد القراء بأن أحكيها بالتفصيل يومًا ما؛ لأن صوت جسم ثقيل يسقط ثقب مسامعنا.. وفتح من كان غافيًا عينيه في ذعر، وتساءل:

- «ما هذا؟»

نهضت مدام (ناهد)، ونظرت في حذر إلى الغرف المغلقة، وقالت:

- «الصوت من غرفة المكتب؟ ثمّة شخص هناك!»

وقفنا متصلبين؛ عاجزين عن اتخاذ قرار صائب، وقال المخرج العجوز (أبو النجا)

في توتر:
- «فلنر ما هنالك!»
قلت له وأنا أضغط على معصمه في رفق:
- «لا تنس الاتفاق وما نحن فيه الآن.. ربما كانت هذه وسيلة لجعلنا ننسى الحذر، ونندفع بحماقة إلى الحجرة..»
في ضيق غمغم (محمود عوني)، وهو يفرك عينيه:
- «لقد طالت هذه الدعابة على كل حال؛ والساعة الآن الثامنة والنصف صباحًا.. لا بد من نهاية ما.. إن هذا موعد وصولي إلى الجريدة، فأنا طائر مبكر.. ولم أتخل عن هذا ثلاثين عامًا إلا لإجازة قصيرة..»

- «أنا كذلك لديَّ ما أحتاج للعودة إلى داري من أجله.. بالمناسبة أنا سعيد بكونك تعمل بهذا الحماس صباح الجمعة..»
- «ليست هناك عطلة أسبوعية للصحفي..»
- «لهذا أرى أن الوقت قد حان كي نعيد تقييم الموقف، ولربما قررنا أن نفتح أحد هذه الأبواب بعد كل شيء..»

❋ ❋ ❋

شطائر وشاي من جديد!

لقد التهمت شطائرًا وشربت شايًا في هذه الليلة كما لن أفعل طيلة حياتي لو عشت؛ والمشكلة هي أن كل هذا الشاي ألهب

معدتي، وجعلني أجتاز حالة (اللانوم - لا يقظة) التي أمقتها.. ذهني مبلبل كمن يتهيأ للنوم، لكنه متوتر مشدود كمن في ذروة يقظته.. لا أستطيع البقاء مفتوح العينين لكني ـ كذلك - لن أنام لو حاولت..

قلت لهم:

ـ «الموقف الآن بسيط جدًا.. لقد انتظرنا لفترة طويلة، وما زال من الممكن أن ننتظر أكثر، لكنّ هناك خيارًا آخر هو أن نحشد أعصابنا وندخل.. في هذه الحالة على كل منا أن يخمن الباب الصحيح، وعليه أن يقدم أسبابًا مقنعة...»

قالت (هيام) وهي تطرف بعينيها الحمراوين من فرط السهاد:

- «الأمر واضح.. الغرفة الآمنة هي غرفة السينما.. أكثرنا ها هنا فنانون لهم علاقة بفن السينما، ولا بد أنه يخبرنا أن الفن هو خلاصنا مما نحن فيه..»

- «ربما كان العكس!»

قالتها (ناهد) في ثقة؛ وأردفت وهي تنظر لعيوننا:

- «لقد كان زوجي يسخر في سرّه منكم، ويكره افتعال وضحالة بعضكم، ومن الوارد جدًا أن يضع انتقامه في هذه الغرفة بالذات..»

أضفت أنا وقد راق لي كلامها:

- «هذا يبدو معقولًا.. وأضيف أنا أنه لو كان قد قرأ (شكسبير)؛ فمن المنطقي أن يكون الباب الصحيح هو أقل الأبواب

جاذبية وبريقًا.. مثلما حدث مع صورة الحسناء (بورشيا) في (تاجر البندقية).. إنني أرشح باب غرفة المكتب..»

نظرت لي (ناهد) غير فاهمة، وتقلص وجهها مستنكرةً:

- «أظن أن باب غرفة الجلوس هو الأدنى للصواب.. ما دام يعتقد أنه شهيد الحياة الزوجية مع امرأة مفترسة مثلي.. يريد أن يقول لي: إن النجاة هي في حياة منزليّة مستقرة..»

قال الأستاذ (محمود عوني) وهو يشعل غليونه، بعد إفطار حافل:

- «أنا أضم صوتي لد. (رفعت) بصدد غرفة المكتب.. فالرجل مثقف عالم؛ ولا بد

أنّ هذه الغرفة مقدسة بالنسبة له هذا يضع النقاط على الحروف..»

في اشمئزاز قالت الشاعرة دون أن تنظر لأحدنا:

- «حمقى هم أنتم.. تمشون لنهايتكم في إصرار كدراما إغريقية كتبها (سوفوكليس)..»

- «معروف أننا حمقى.. لكنّ لماذا هذه المرّة؟!»

دست قدميها في حذائيها ووقفت، وقالت دون أن تنظر لنا:

- «رقم سبعة.. الرقم المختار.. ألا يشير لشيء ما؟»

هنا اتسعت عينا (ناهد) في فهم.. وارتجفت شفتاها:

- «رباه! غرفة السينما بها سبعة مقاعد.. أنت محقة يا (نادية).. إنها لم تنس هذا الرقم، لأنّها دخلت تلك الغرفة مرارًا، لترى أفلام الهواة التي كان زوجي يصورها.. لقد سألته يومها ساخرة عن سبب إصراره على سبعة مقاعد لا أكثر في هذه الغرفة.. لماذا لم تكن ستة أو ثمانية مقاعد، فقال لها إن رقم (سبعة) مهم بالنسبة له...»

هنا فرد (سمير الصياد) يديه كأنما يغني، ورفع حاجبية حائرًا:

- «وهذا معناه الدخول أم عدم الدخول؟»

- «ياله من سؤال! الرجل يتفاءل برقم سبعة.. ندخل طبعًا!»

قلت لها مفكرًا:

- «بالعكس.. لو فكرت بطريقة أخرى لأحجمت عن الدخول.. نحن سبعة ونهايتنا في غرفة ذات سبعة مقاعد.. رقم (السبعة) يأخذ طابعًا ملحميًا محبًا للنفس..»

من جديد ابتسمت الشاعرة في ثقة، ونهضت إلى مكتبة أنيقة على الجدار تراصت عليها كتب لم نلحظها طبعًا طيلة الأمسية، وأشارت إلى الكعوب، وقالت:

- «ثلاث نسخ من كتاب (أعمدة الحكمة السبعة) الذي كتبه المغامر الشهير (لورانس) الذي لقبوه بـ (لورانس العرب).. هذه رسالة واضحة جدًا؛ ومشكلتكم هي أنكم سطحيون.. لقد اعتادت عيونكم أن تنزلق انزلاقًا فوق الكتب، بينما تثبت على تفاهات الحياة...»

وأخذت شهيقًا عميقًا وقالت:
- «الحل يكمن في غرفة المكتب!»
قال المخرج الكبير في سخرية:
- «يا سلام! بهذا الوضوح؟! لم لا يكون قد قصد فيلم (لورانس العرب) الذي أخرجه (ديفيد لين)، والذي قدم (عمر الشريف) للسينما العالمية؟ هنا يكون مفهومًا أنه يشير لغرفة السينما!»
ونهض متأوهًا، فقد تحولت ساقاه إلى لوحي خشب بعد كل ما جلس خاصة مع داء التهاب العظام المفصلي..
قلت بدوري بلهجة الحسم.
- «الحق أننا نطيل التفكير أكثر من اللازم.. ربما لم يكن الرجل يقصد شيئًا أصلًا. ربما ليس بهذه الثقافة وخلو البال..

لسنا - بعد كل شيء ـ في حلقة من حلقات (هولمز)، ولا نحن بصدد قصة (الحشرة الذهبية) لـ (إدجار آلان بو).. ربما كان الأمر أتفه من هذا.. من أية حجرة سمعنا صوت الارتطام؟»

قالت مدام (ناهد) مشيرة بأناملها نحو باب من الأبواب.

ـ «من غرفة المكتب.. هنا!»

ـ «إذن لنتوكل على الله ونفتحها.. لو ظللنا ها هنا إلى يوم الدين فلن نصل إلى قرار ما..»

❋ ❋ ❋

- «أنت الأول يا د. (رفعت) ما دمت صاحب الفكرة!»

وتركوني أتقدم إلى الباب، وتراجعوا تحسبًا للأسوأ..

ارتجفت يدي قليلًا.. الحقيقة هي أن الباب اكتسب ثقلًا معنويًا رهيبًا بالنسبة لي، وشعرت كأنني على وشك فتح بوابة (جانب النجوم) ذاتها.. المقبض يدور.. ريقي يجف.. نبضي يتسارع..

صوت صرير خافت.. ثم...

ثم (هيام) تصرخ في هلع..

* * *

- ٢ -

ووثبنا جميعًا للوراء، بينما ركض الفأر الأبيض الصغير بين سيقاننا.. وكانت صرخة (هيام) شبيهة بامرأة ينتزعون عينها بمسمار صدئ..

- «فأر! إي ي ي ي ي ي ي!»

صحت في هيستريا:

- «صمتًا!»

إن النساء يصرخن دومًا حين يرين فأرًا، لا بسبب الذعر على ما أظن، ولكن لأن العادة تحتم أن يصرخن.. وذعرهن يكون مخيفًا أكثر من الفأر نفسه..

وعدت أنظر عبر فرجة الباب إلى الحجرة..

* * *

كانت مظلمة هادئة أنيقة، نضوع برائحة عطر خفيف رجولي، يمتزج مع رائحة الكتب المحببة امتزاجًا.. مكتب فاخر من طراز (لويس ما.....)..

لا بد أنه أحد (اللويسات) الذين يخيّل إليك أنهم لم يفعلوا سوى صناعة الأثاث في فترات حكمهم..

الكتب على رفوف جدارية، أكثرها طبي طبعًا.. لمحت هذا في الضوء الخافت القادم من وراء ستار من القطيفة..

على الأرض أمام المكتب كان كتابان قد سقطا، وانفتحت صفحاتهما، وفي ركن المكان هرع فأر أبيض يتوارى مذعورًا...
قلت لمدام (ناهد) وأنا أدخل باطمئنان أكثر..
- «هذا هو مصدر ما سمعناه.. أحد الفأرين أسقط الكتابين من موضع حرج كانا فيه على حافة المكتب..»
قالت (هيام) في اشمئزاز، وهي تواصل النهنهة:
- «فئران في بيتك.. رباه! كنت أحسبه نظيفًا!»
قلت قبل أن تفترسها (ناهد).
- «فئران بيضاء! هذا يدل على أنه اشتراها خصيصًا ليضعها هنا.. لو كانت

الفئران التي تتسلل للبيوت القذرة بيضاء؛ لبدا لي هذا جميلًا..»

- «وما معنى هذا؟»

- «لا شيء سوى العبث.. كان يعابثنا، بالإضافة إلى أن أصوات الفئران في أثناء حركتها ستملؤنا بالتساؤلات حتمًا.. إنها لعبة أعصاب مختارة بعناية..»

واتجهت إلى باب غرفة السينما لأفتحه..

* * *

ولم تكن هناك فئران بالداخل..

فقط سبعة مقاعد، وشاشة بيضاء، وآلة عرض، ومطفأة تبغ هنا أو هناك... ولاحظت أن آلة العرض معبأة بفيلم..

ساد الصمت.. ثم قالت الشاعرة الثائرة:

- «يبدو الأمر موحيًا.. يريد منا نحن السبعة أن نجلس ونشاهد هذا الفيلم، ولا يعلم إلا الله - تعالى - ما يحويه..»

دنا المخرج العجوز من آلة العرض، وعالج زرًا بها، من ثم بدأت الأرقام المميزة تتوالى على الشاشة، ثم بدأت الصورة مع الهدير...

كان هذا هو (جابر) شخصيًا.. على الشاشة.. ومن الواضح أنه قام بتصوير نفسه في غرفة المكتب؛ لأن الإضاءة لم تكن على ما يرام، ومعظمها من الناحية اليسرى حيث النافذة كما في لوحات (رمبرانت)..

- «مرحبًا بوصولكم إلى هنا!»

قالها وهو يبتسم في خبث، فتبادلنا النظرات.. هذه بالفعل رسالة واضحة مباشرة لنا.. قال المطرب:

- «إذن كان الأمر......»

- «إخرس!»

- «إخرس!»

دوّت ست عبارات (إخرس)، فخرس، ولولا الظلام لقلت إن أذنيه احمرتا خجلًا.. آخر شيء تحتاج إليه هو الاستنتاجات الذكية..

وعلى الشاشة واصل (جابر) الكلام في تؤدة:

- «لا أدري من بقي منكم هنا ليشاهدوا هذا الفيلم، ولا أدري إن كنتم وصلتم إلى هنا بالصدفة أم بتفكير منظم.. لكني أرحب

بكم.. في الواقع خطرلى أن تلميحي إلى رقم (سبعة) سيذكركم بالفن السابع: السينما، ويقودكم إلى هنا..

«الآن أعتذر عما سببته من أذى وقلق لكم...

«لو سارت الأمور كما أتخيّل؛ فلا بد أنكم أمضيتم ليلة سوداء تضربون أخماسًا بأسداس، وتتساءلون عن انتقامي.. في الحقيقة هذا هو الانتقام بعينه الذي رتبته لكم..

«أنا لست إرهابيًا ولا خبيرًا في تدريب الكواسر والوحوش.. أنا رجل مثقف مسالم، ولا بد من انتقامي أن يكون مثقفًا مسالمًا كهذا..

«لا باكتريا طاعون.. لا عناكب سامة.. لا ألغام أرضيّة.. ولا حتى إناء من الزيت المغلي يسقط فوق رأس من يفتح الباب..

«فقط الخوف من المجهول.. فقط عدم الاطمئنان...

«هذا هو انتقامي.. أمّا لماذا أنتقم منكم؟ فقد سمعتم شريط التسجيل، وهنا أضيف أن المجتمع يعاني من غثاثة وهشاشة وتفاهة لا تصدق.. وما فعلته هو بمثابة صرخة احتجاج أخيرة تقول: أنت تافه بحق أيها المجتمع.. جرب مشاعر القلق مرة واحدة على يدي....

«والآن أفارقكم دون ضغائن.. وأعرف أننا لن نلتقي ثانية.. إن محامي يملك كل التفاصيل القانونية يا (ناهد)، ويعرف كيف

يستعيد جسدي من الولايات المتحدة ليُدفن في قريتي: وهو سيرتب لك كل تفاصيل الميراث.. فلا تقلقي..»

هنا صاحت (هيام) وقد شعرت بأنه ينهى الكلام:

- «لحظة! أين المخرج من البيت؟»

كأنما سمع صيحتها، ابتسم بخبث على الشاشة وقال:

- «بالمناسبة كدت أنسى أن أخبركم بطريقة الخروج من هنا.. إن الباب الرئيسي مفتوح، وليس مغلقًا بالمفتاح كما توهمتم!

«والآن وداعًا!»

* * *

وخرجنا كأطفال أشقياء، سمحت لهم المعلمة القاسية بالفسحة نضحك في بلاهة.. نرمق السماء غير مصدقين.. نضرب أكفنا مصافحين، وراحت (هيام) تدور حول نفسها وقد فردت ذراعيها، مئات المرّات كأنها (نحلة) مما يلعب بها الصبية.. أمّا الشاعرة فراحت تسعل معبرة عن سرورها..

لقد كنا بلهاء بحق..

هذه إهانة عاتية، جعلت منا الغباء مجسدًا.. ولن ينسى أحدنا أبدًا هذه الصفعة الوهمية على خده، كلما فكر في ذكائه وبراعته..

لكن كل شيء انتهى على ما يرام..

❋ ❋ ❋

وبعد أسبوعين توفي د. (جابر) في مستشفى بـ (منيسوتا)..

تفرقنا وتباينت مصائرنا، لكنّ كلًا منا لم ينس قط هذه اللحظة الإنسانية الحميمة التي وحدت بيننا، وشعوره بأن الآخرين لم يكونوا بهذا السوء..

ربما تستطيع أن تحبهم بشيء من الجهد لو أردت...

❋ ❋ ❋

كانت هذه حلقة الرعب الرابعة....

ترى هل أخبركم الآن بمحتوى حلقة الرعب الخامسة؟
بالطبع لا.. هل تعرفون لماذا؟
لأن هذه حلقة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

الإيداع:
١٦٠٦

المطبعة
العربية
الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧
المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت:
٢٨٢٣٧٩٢ -
٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

وراء الباب المغلق

ماذا ينتظرنا خلف الباب المغلق ؟ ماذا لو مددنا أيدينا المرتجفة إلى المقبض ؟ ماذا لو سمحنا لفضولنا بأن يرتوي ؟ هل نعود أحياء ؟ هل تبقى بحلوقنا قوة تسمح لنا أن نحكي ما حدث ؟ هل تظل لدينا حلوق أصلاً ..



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم:
أسطورة فرانكنشتاين


الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ – ٢٨٣٥٥٥٤ – ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

الثمن في مصر ـــ
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

Notes

[←1]

لا تنس أن القصة تحدث عام 1971 حيث لم يكن هناك هاتف محمول، ولو كان مع أحد الموجودين لانتهت القصة بعد صفحة واحدة!

[←2]
حقيقة... لقد حدث هذا بالفعل مع مخرج آخر لن يذكر اسمه طبعًا!

[←3]
على سبيل التحذلق: خطيبي لا تنطق إلا مع كسر الخاء وتشديد الطاء!